آكيبة ...
سنوات الطفولة

وول سوينكا

ترجمة سمير عبد ربه

آكية ... سنوات الطفولة

تأليف
وول سوينكا

ترجمة
سمير عبد ربه

هنـــداوي

آكية ... سنوات الطفولة

Aké: The Years of Childhood

ول سوينكا

Wole Soyinka

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٨ ٣٨٨٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٨١.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير عبد ربه.

مقدمة

بقلم المترجم

يضُم الأدب الأفريقي كثيرًا من الأعمال الجيدة التي ينبغي التوقف عندها؛ إذ لا تقل أهميةً وإبداعًا عن الأدب الغربي الذي تزخر به مكتباتنا العربية، وباستثناء بعض المحاولات الجادة والقليلة التي قام بها كُتابنا وأدباؤنا، في التعريف بهذا الأدب وهؤلاء المبدعين، فإننا نُعاني نقصًا في هذا الصدد لا يتناسب مع ما يحتويه الأدب الأفريقي من أعمالٍ عظيمة في شتَّى مجالات الإبداع (القصة – الرواية – الشعر – المسرح)؛ إذ إن اختلاف الثقافات قد ساهم بشكلٍ مباشرٍ في إبداعات تلك القارة السوداء، إلى جانب الاستعمار الأوروبي، الذي لا يخلو أيُّ عملٍ أدبي من الإشارة إليه، كما أن التراث والبيئة والطقوس الخاصة، التي يتميز بها ذلك العالَم الأفريقي الأسود، قد انعكسَت على الفنون والآداب، وأكسبَتْها مذاقًا خاصًّا، ونستطيع أن نرى ذلك بوضوحٍ في معظم الأدب الأفريقي إن لم يكن جميعه.

يُعد سوينكا أهم وأبرز كاتب أفريقي، وُلد عام ١٩٣٤م، في مدينة «أبيوكوتا» بجنوب نيجيريا، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي أشاعت في نفسه وهو صبيٌّ كثيرًا من الأفكار والمشاعر، انعكسَت في أعماله فيما بعدُ، وبخاصة في هذه الرواية الهامة «آكية ... سنوات الطفولة»، وهي عبارة عن سيرةٍ ذاتيةٍ مُبهِجة، كتبَها سوينكا بأسلوبٍ أخَّاذ ورشيق، وتحكي قصة طفولته وصباه قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، في مدينة «آكية»، بغرب نيجيريا؛ بحيث يصعُب على من كانوا في عمره أن يكبَروا دون أن يتذكَّروا كلَّ شيء، أولئك الذين شاء لهم أن ينشَئوا في تلك البيئة وذلك المكان المتعدِّد الثقافات.

التَحَق «وول سوينكا» بمدرسة «أبادان» الحكومية، وأتم تعليمه بجامعة «أبادان»، ومع بداية التحاقه بالجامعة أُذيعَت له أول قصة في الإذاعة عام ١٩٥١م، فكان ذلك حدثًا مثيرًا بالنسبة له.

يعمل الآن أستاذًا للأدب المقارن بجامعة «آيف» بنيجيريا، وقد حصل على الدكتوراه الفخرية في الأدب من جامعة «ييل»، وكذلك العديد من الجوائز الأدبية، كان آخرها جائزة نوبل العالمية عام ١٩٨٦م.

مبدعٌ وفنانٌ شامل!

المتتبع لأعمال سوينكا المتنوِّعة لا بد أن يقف كثيرًا أمام سؤالٍ محيِّر بعضَ الشيء: هل هو كاتبٌ مسرحي أم روائي أم أنه شاعر؟

والإجابة على هذا السؤال هي كل ذلك معًا، بالإضافة إلى أنه ناقد، وممثل، ومخرج إذاعي، ومسرحي، وكوميديان، ومدرس جامعي، ومصمم أقنعة، فكان لهذه التركيبة الفنية الثرية والمتنوعة أثرها في أسلوبه الأدبي.

في فترة السجن كتَب كثيرًا من القصائد والمخطوطات التي تناوَل فيها تجربته، والتي تجسَّدَت في عمله الشهير «مات هذا الرجل»، الذي كتَب فيه عبارته الشهيرة: «يموت الرجل في كل إنسانٍ يلتزم الصمت في وجه الطغيان.»

بدأ «وول سوينكا» إنتاجه عام ١٩٦٠م، برواية «رقصة الغابات»، تلاها في عام ١٩٦٥م برواية «المفسِّرون» التي تعرَّض فيها لمشاكل المثقفين وقضاياهم في عالمٍ أفريقيٍّ متميز بإحدى المدن النيجيرية، من خلال علاقةٍ قوية تربط بين أربعةٍ من الأصدقاء (مهندس – صحفي – فنان تشكيلي – مدرس جامعة). كتب أيضًا في عام ١٩٧٣م «موسم الفوضى»، وتبعها بكتابه «داخل القبو»، و«الأسد والجوهرة»، و«العِرق القوي»، و«ثورة كونجي»، و«الموت»، و«أناس المستنقع»، و«العمالقة»، و«سنوات الحزن»، و«محاكمة الأخ جيرو»، و«أتباع باكوس»، وأوبرا «ونيوس»، و«مكوك في السرداب».

أصدر سوينكا ديوانَين من الشعر؛ أولهما عام ١٩٦٧م، والآخر عام ١٩٦٩م، وتُعَد قصيدتُه «محادثة تليفونية» من أشهر قصائده، وفي هذا الصدد أودُّ أن أذكُر أن كل أعماله مكتوبة بالإنجليزية، فيما عدا معظم أعماله الشعرية، التي كتبها بلغته الأصلية، وهي لغة اليوروبا.

المسرح عند سوينكا

نتوقف قليلًا عند السؤال التالي: ماذا عن مشاريعك المستقبلية؟

أجاب سوينكا قائلًا: من الأفضل أن نُسرع بتشغيل المسرح بكل ما لدينا من حب وعطاء، وكم أتمنَّى أن أتفرَّغ طوالَ حياتي للمسرح؛ فأنا أستطيع بالمسرح أن أحقِّق وجودي إلى أقصى درجة.

إن هذه الإجابة كافيةٌ تمامًا لتوضيح مدى عشق سوينكا للمسرح.

إن إعجاب سوينكا بالمسرح يكمُن في حرِّيته الكاملة في التعامل مع أدواته، غير أن هدف المسرح — كما يقول — لا يعنيه؛ أي إنه ليس ملزمًا بالتعليم والتنوير وبث الأفكار في عقول المشاهدين، لكنه في نفس الوقتِ يضع التزامًا لنفسه أمام الجمهور، وهو ألا يغادروا المسرح قبل أن يكون قد قال شيئًا.

من أهم أعماله المسرحية

- «الأسد والجوهرة»، أولى مسرحياته.
- «رقصة الغابات»، كتبها عام ١٩٦٠م، وتناول فيها احتفالات الاستقلال، وعلاقة نيجيريا بماضيها، وقد نال عنها جائزة، وعند عرضها على المسرح لاقت نجاحًا كبيرًا.
- «العشيرة القوية»، مسرحية من فصلٍ واحد، وهي أحب الأعمال إلى نفسه.
- «الطريق»، استخدم في كتابتها دلالة القناع.
- «محاكمة الأخ جيرو»، مسرحية كوميدية من فصل واحد تحكي حكايةً خفيفةً عن الشر الإنساني، وهنا أودُّ أن أشير إلى أن الكوميديات تُعَد بالنسبة لكاتبنا أصعب الأعمال.

دوافع الإبداع عند سوينكا

بقراءة أعمال سوينكا المسرحية أو الروائية أو الشعرية نستطيع أن نتلمَّس فكرةً بعينها تستولي عليه، وهي أن البشر في كل مكانٍ بالعالم متوحِّشون يدمِّر بعضُهم بعضًا، أو كما قال هو نفسه: «إن الجنس البشري ببساطة جنسٌ متوحش.»

ربما كانت هذه بعضَ الأفكار والمشاعر التي أشرنا لها في البداية، والتي انعكسَت على رُوحه حين كان صبيًّا أثناء الحرب العالمية الثانية، ونستطيع أن نلمسَها بوضوحٍ في إبداعاته المختلفة، إلى جانب البشاعة المستترة والشرور التي يرى سوينكا أنها سمةٌ من سمات العالم الأوروبي.

وكما كان الألم مثيرًا للإبداع الفني عند «ديستوفيسكي»، والضمير الإنساني المعذب عند «تولستوي»، وكانت عقدة الاضطهاد عند «فرانز كافكا»، فإن التوحُّش والشرور والبشاعة هي دوافع الإبداع عند سوينكا، الذي لا يفكر في المتلقي حين يكتب، ولا يبالي بالجمهور حين يؤلف عملًا مسرحيًّا؛ إذ لا يهمه ما إذا كان ذلك الجمهور من نيجيريا أم من أي بقعة في العالم، إنه يكتب وفي ذهنه أن القاعة مليئة بالناس، وأن هؤلاء الناس يحسون ويشعرون، وأن الكاتب لا يمكن أن يكتب عن لا شيء.

هكذا يكتُب «وول سوينكا» داسًّا فكرتَه بين طيَّات أعماله، وعليك أن تكتشف هذه الفكرة أو تلك، التي في معظم الأحوال لا تخرج عن كونها فكرةً إنسانيةً شاملة، وهكذا شأن الكاتب المبدع الذي يتجاوز نفسه وبيئته إلى رؤيةٍ أبعد، وإلى آفاقٍ أكثر شمولًا.

سمير عبد ربه

١

آكية، أرضٌ متموِّجة ومترامية الأطراف، وهناك عند مرتفعات «أوتوكو» كان إصطبل القسِّ قريبًا من رأس التل، ثم ذلك الطريق المتعرِّج الصاعد من سوقٍ صاخب إلى سوقٍ آخر يُطل على أكثر مداخل الدير سرِّية.

كانت كنيسة القديس بطرس التي يؤدُّون فيها صلوات الصباح والمساء باللغة الإنجليزية، وكانت موسيقى الأرغن تُدوِّي في تلك الأمسيات.

كان القس متبلِّد الحس مثل بيته المربَّع الشكل، ذلك البيت المشوَّه بشبابيك ذات إطارٍ خشبي أسود؛ حيث يحلُّ ضيوف الأسبوع للإقامة، وكان فِناء الأساقفة في أحد الأدوار، ومن الطابق العلوي كان من اليسير رؤية قمة «أوتوكو»، غير أن رؤية البوابة كانت متعذِّرة بعضَ الشيء.

كانت فصولُ المدرسة الابتدائية فارغةً في الليل يُحيط بها بستان الفاكهة؛ حيث كنا نختبئ، وكانت الخبيزة طازجةً والهواء مشبعًا برائحة أوراق الليمون والجوافة والمانجو، وممتزجًا برائحة أشجار «البوم بوم» وإفرازات المطر المتساقط على الأوراق الظليلة الواسعة الانتشار، لكن شجرة الأناناس فوق الآكاسيا وغابات البامبو دائمًا ما كانت تجعلنا غاضبين؛ إذ لم تكن تصلُح إلا سكنًا مثاليًّا للثعابين إذا ما كان للثعابين ثمَّة اختيار.

كان بستانُ الفاكهة في الجانب الأيسر لبيت القس وملعبُ المدرسة بما فيه من نباتاتٍ وفاكهة مكانَين لرجال الدين ودروس الكنيسة وتلك المواعظ المُمِلَّة، وكان نبات «كانالِيلي» بأوراقه المزركَشة باللون الأبيض والأحمر مُبقعًا ببقعٍ بيضاء كثيرة، ولم يكن أحدٌ يستطيع أن يفسِّر وجود هذه البُقع، ولَمَّا كان المسيحُ مُسمَّرًا إلى الصليب وجراحُه تتدفَّق بالدم، فقد قيل بأنها ربما كانت نوعًا من رجم الخطايا في دم المسيح.

لكن شجرة الرمان كانت هي سيدة البستان، لم تكن تنمو كثيرًا من بذور الكنيسة بقَدْر ما كانت تراتيل أيام الآحاد تساعد في نموها. كان البستانيُّ بيده المعروفة ووجهه المألوف لدينا هو الذي يعتني بشجرة الرمان مرةً واحدةً كل حين؛ ولذلك فقد كان إنتاجها قليلًا.

قال البستاني: إنها تنمو هنا فقط، هنا فقط تنمو شجرة الرمان!

كان من الغريب أن تنموَ في هذه التربة، لكنَّ مطرانًا سابقًا من الرجال البيض جاء معه بالبذور وزَرعَها في البستان.

تساءلنا عما إذا كان تفَّاحًا.

ضحك وأجاب بالنفي، ثم أضاف: وهل يُوجَد التفاح في تربة الرجل الأسود؟

قبل الفجر بقليلٍ كان تغريد الطيور يملأ البيت، وكانت أسرابٌ من الخفَّاش تسكن شجرة التين، التي كانت تنتشرُ بذورها فوق الأحجار والخضرة والممرَّات والشجيرات.

كنتُ أستلقي فوق الخضرة أمام منزلنا متطلعًا بوجهي إلى السماء ورأسي باتجاه فِناء الأساقفة بينما قدمي إلى السياج الداخلي لبيت القس، وكنتُ أرى من تلك الفضاءات المنخفضة نصفَ مدرسة البنات الإنجليزية والنصفَ الآخر من فِناء الأساقفة، كانت المنطقة المنخفضة تحتوي على فصول الصغار وحجرات نوم الطلبة وحديقة فاكهة صغيرة من الجوافة والخيزران وبعض النباتات الأرضية، وفي موسم الأمطار كانت تُوجَد دائمًا تلك القواقع بأشكالها المختلفة، وفي المنخفض الآخر حيث كنا ننام من وقتٍ لآخر كان بائع الكتب، وهو رجلٌ ضعيفٌ متغضِّن له زوجةٌ هادئة وجميلة، كنا نستمتع ببعض التأملات في ذلك المكان الفسيح الذي يقطع الطريق المؤدي إلى «إيبارا»، وكان هو المكان الوحيد في بيت القس الذي تُوجَد به بئرٌ للمياه، فكان في موسم الجفاف مزدحمًا بالناس، كما كانت أشجار جوز الهند تنمو في ذلك المكان.

كان الأسقف «أجايي جروثر» يظهر أحيانًا من بين مجموعة نباتات الزينة بزيِّه الرسمي ووجهه الخرافي وعينَيه الجاحظتين وهو يحدِّق فينا.

قال المدرِّس: منذ أن عاش في بيت الأساقفة وهو يحدِّق من خلال النباتات المتسلِّقة.

كلما مررتُ ببيت الأساقفة في مهمةٍ إلى عمتي الكبرى «مسز ليجادو» عرفتُ أنه لم يعُد سوى منزلٍ لبنات المدرسة وملعبٍ إضافيٍّ لنا أثناء الإجازات.

جلس الأسقف بهدوء على مدرجٍ خشبي عند المدخل، وكانت ملابسُه مثل النبات المعترش، تحرَّكتُ بالقرب منه، وحين رمقَني بعينَيه تعجَّبتُ لتلك الصورة التي يبدو عليها بردائه الكهنوتي، وأيضًا لتلك السلسلة الفضية التي تصل حتى الجيب.

ابتسم ابتسامةً عريضة، ثم قال: اقترِب أكثر، سأجعلُك ترى.

كانت السلسلة تنتهي بساعةٍ للجيب تُومِض بالفضة، وحين تحركت باتجاه الشرفة رسم الأسقف على السلسلة حلقةً دائريةً كاملة وضغط على مفتاح الساعة فظهرَت إلى جانب الزجاج سحابةٌ عميقة ملأَت الفضاء، وعندئذٍ طرف بعينٍ واحدة فسقطَت السحابة من وجهه إلى تجويف الساعة، ثم طرف بالعين الأخرى فسقطَت سحابة أخرى إلى الساعة، وأعاد غلق الغطاء فجأة وهو يُومئ برأسه الأصلع، اختفت أسنانه وشد جلده حتى تكشَّفَت العظام، ثم وقفَ وخَبَّأ الساعة في جيب المعطف، تحرَّك خطوةً ناحيتي فهربتُ باتجاه المنزل.

كان بيتُ الأساقفة أكثر جمالًا وروعةً من بيت القس، كانت تُحيطه الأحجار البيضاء النظيفة والزهور الجميلة، وكانت الصخور المظللة منتشرة في كل مكان تزيد السحب من فتنتها وروعتها، وعند هبوب العواصف القوية كانت أوراق الشجر تروح وتجيء مع الرياح حتى تتدلى فوق بيت الأساقفة.

كذلك كان واضحًا أن الأساقفة لا يعملون على تحدِّي الأرواح مثلما كان القساوسة يفعلون، وكانت رؤية الأسقف «أجايي جروثر» متجولًا خارج بيت القس تُخيفني.

أشارت أمي إلينا قائلة: لماذا تجلسون هنا؟ أليس هذا وقتَ حمَّام المساء؟

ثم نادت بصوتٍ عالٍ: «لاوانل.»

أجابت الخالة «لاوانل»: «ما؟»

كنتُ أسأل كثيرًا عن الخال «سانيا» وعن الأشباح والأسقف «جروثر».

قالت أمي: ألن تكُف عن الأسئلة؟

دخلَت «لاوانل» قائلة: هيَّا إلى الحمام يا أطفال.

لكنني أجبتُ: لا، انتظري أيتُها الخالة.

أمسكتُ بذراع كلٍّ منا وأنا أصرخ: هل كان الأسقف «جروثر» شبحًا؟

ضحكَت أمي قائلة: إنه لا يتوقَّف عن الأسئلة.

كان «جي – جي» ابن عم أمي مسافرًا في إحدى جولاته الكثيرة، التي يقوم بها راكبًا أو سيرًا على قدمَيه من أجل الدعوة إلى كلمة الله، وليبقى على اتصالٍ دائمٍ بكل فروع الأبرشية، كانوا يستقبلونه في كل مكان، ولم يكن ثمَّة شيء يمنعه من القيام بمواعظه.

تلاشَى بستانُ الفاكهة وقضَى الماعز على صفوف الليمون الذي كانت أعشابه علاجًا للحُمَّى والصداع، كنا نتناول قطعةً من الأسبرين أو قطعتَين مع فنجان من الشاي بعشب

الليمون الساخن قبل النوم كعلاج، وكانت رائحتُه العطِرة نوعًا من التغيير كبديلٍ عن الشاي المعتاد.

مع الوقت تلاشَى أيضًا ذلك النصب التذكاري الأبيض بشكله المربع، الذي كان يحاذي الصخور المطلة على بيت القس، والذي من خلاله كنتَ ترى الزائر وهو يدخل البوابة.

كان سيد ذلك البيت قويًّا مثل الصخور، كان أسود ضخمًا، وله رأسٌ جرانيتي وأقدامٌ هائلة، ويدعونه غالبًا بالقس أو الكاهن أو المحترم، أو كما كانت تدعوه أمي «باديلومو»، كنا كثيرًا ما نخرج مع أمي في حملَتها الشرائية، أو لزيارة الأقارب، أو لبعض أغراضٍ أخرى لم نكُن ندركها، ودائمًا ما كنا نعود بانطباعاتٍ غامضة عن رؤية شيءٍ ما، وكان الابتهاج يتملَّكُنا دائمًا رغم شعورنا بالإجهاد الشديد؛ لأننا غالبًا كنا نسارع في إعداد أنفسنا وارتداء ملابسنا وتمشيط شعرنا، بالإضافة إلى أننا كنا نسير على أقدامنا معظم الطريق، وحدث ذاتَ مرةٍ أن تسلَّقنا الطريق العالي، وتجاوزنا مدخلًا رائعًا وأعمدةً بيضاء، وكان مكتوبًا على اللوحة: «المقر»، كان من الواضح أن رجلًا أبيضَ يعيش هنا، وكانت البوابة في حراسة شرطي يرتدي شورتًا فضفاضًا، ويُحملِق في وجوهنا، كان المنزل خلف التل تغطِّي الأشجارُ جزءًا منه، وقد وقعَت عيناي على خرطومَين أسودَين ثقيلَين مسنودَين بعجلاتٍ من الخشب، وواقفَين على أعمدة وكأنهما يشيران إلينا، مما أثار انتباهي، كانت كومة من الكرات المعدنية الدائرية بحجم كرة القدم إلى جانب كل خرطوم.

قالت أمي: إنها مدافع تُستخدَم في الحروب.

قلت: لكن بابا يدعو «باديلومو» بالمِدْفع، لماذا؟

شرحَت لنا الفارق، لكنني كنتُ قد عرفتُ الإجابة الخاصة بي، إنها الرأس، إن رأس «باديلومو» يشبه كرة المدفع؛ ولهذا كان يدعوه بابا بالمدفع، وكان كل شيء عن المدافع يستدعي وجود الرجل، وقوَّته وصلابته، كانت المدافع غير قابلة للتحرُّك أو التخريب، وكذلك كان هو، وكأنه قادر على قهر أي شيء، عند زيارته لنا كان يشغَل الحجرة الأمامية بكاملها، ولم تكن تُناسبه سوى الردهة الواسعة والكرسي ذي المسندَين، شعرتُ بالأسف على كتبه الدينية، وعلى القس الأعظم، وراعي الأبرشية ومساعديه؛ فقد كانوا تافهين مثله وفقراء الروح مثل فأر الكنيسة.

كان العم «رانسوم كوتي» أحد الرجال الذين يأتون إلى منزلنا يرتدي قلادة دائرية، وكانوا جميعًا ينادونه «داودو»، وكان دائمًا يتفوق على نفسه.

كان «باديلومو» يُفزِعني بوجوده؛ إذ لم يكن يسيطر على بيت القس وإنما على آكية بأَسْرها، وكان أكثر نشاطًا من «كابينزي».

كانوا في الغالب يتمدَّدون على الأرض، وكان أحدهم الأسقف «هاولز»، الذي يعيش في عزلة ليست ببعيدةٍ عن منزلنا.

كان القسُّ دائمَ الحضور للنقاش مع أبي، وأحيانًا كانت تبدو المناقشة خطيرةً وهامة، وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أسمع ضحكاته تسري في المنزل، لكنه وأبي ما كانا يختلفان، نعم، لم أسمعهما قَط يختلفان في مناقشتهما عن الله كما كان يفعل أبي مع بائع الكتب وأصدقاء آخرين، وكنتُ في البداية أخافُ كثيرًا من تلك المناقشة في أمور الدين، وخاصةً حين كان يتحدث بائع الكتب بصوته العالي ورقبته التركية، وهو الذي كان طبيعيًّا، على عكس القس الذي كان يبدو قويًّا، فكانت المنافسة غير متكافئة، وتُعَد خطرًا على بائع الكتب.

في كل المناقشات كان «إسحاق» مدافعًا شريرًا، في البداية كانوا يدعونه S.A، أو H.M، أو السيد، ولأسبابٍ أخرى كان أصدقاؤه يدعونه «إس – إيه – شو»، وقليلون من كانوا ينادونه باسمه، تعجَّبتُ لكثرة أسمائه، غير أنني في نهاية الأمر لم أستطع أن أقتنع بذلك الكلام المنتقى وتلك المناقشات العقيمة.

كان خطُّ «إسحاق» جميلًا، وكذا كانت ملابسُه، أما عن عاداته في الأكل فقد كان مصدر تعجُّب من الأم، ولم يكن يشرب قَط بين الأكل، ولا حتى رشفة واحدة، وكان يثور أحيانًا أثناء المناقشة مثل بائع الكتب، وحين كان يطرفُ بعينَيه الصغيرتَين فإنه يكون أكثر حِدَّة.

كانت زوجة بائع الكتب إحدى أمهاتٍ لنا كثيرات، وكان جمالها بليدًا، وبشرتها سوداء فاحمة، وطيبة إلى حدٍّ كبير، كانت هي وأمي أول من يُجيب علينا إذا ما اختلفنا حول سؤالٍ ما، ولم تتسبَّب قط في إزعاجي، خاصةً فيما يتعلق بأفكاري وتساؤلاتي، وكانت على النقيض من زوجها ذات قلبٍ كبير، وكان ظهرُها الكبير أكثر أمانًا وراحةً من ظهور نساءٍ كثيراتٍ حمَلْنَني فوق ظهورهن، كان ظهرُها ناعمًا يبعث على الأمان والهدوء والطيبة التي ترتسم على وجهها.

حين كنا ننام في منزلها كانت تسأل الخادمة أن تعتنيَ بطعامنا ونومنا، وكانت تعمل على حل أيِّ مشكلة نقع فيها، ولَمَّا كانت ماما تُلاحِقنا بالعصا كانت تدافع عنا قائلة: لا، لا، اضربيني بدلًا منهم، يا لها من امرأةٍ طيبة! كانت طيبةً ورقيقة.

كانت «بوكولا» ابنتها الوحيدة، ولم تكن «بوكولا» من عالمنا؛ فقد كانت تبدو لي أنها أحدُ ساكني العالَم الآخر، كانت «بوكولا» مقيَّدة إلى الأرض بتلك التعاويذ والأحجية

والخلاخيل التي ترتديها في ركبتها وأصابعها وخصرها، وكانت تعرف بأنها àbikú[1] ولم يحدث أن تجرَّأ والداها على توبيخها لمدةٍ طويلة أو بشكلٍ حاد.

انسحبَت عينا «بوكولا» فجأة نحو الداخل، ولم يظهر منهما سوى البياض، فبادرَت «تيني» بالجري، ووقفَت بالقرب منا، ورحتُ أسأل «بوكولا»: هل ترَين ما تفعلينه بعينَيك؟

– إنه الظلام، ظلام فقط.

– هل تتذكَّرين أي شيءٍ عن العالم الآخر؟

– لا، لكن ذلك يحدث حين أكون في حالةٍ من النشوة.

– وهل تقدرين أن تكوني في هذه الحالة، أعني حالةَ النشوة؟

كانت «تيني» تهدِّدني من بعيدٍ أن تخبر أبي وأمي إذا لم أتوقَّف عن تساؤلاتي.

أجابت «بوكولا» بأنها تستطيع فقط إذا كنتُ قادرًا على إعادتها إلى حالتها الأولى، لكنني لم أكن متأكدًا من قدرتي على ذلك، فنظرتُ إليها بإمعان، وتعجَّبتُ لقدرة أمها على التحكُّم في ذلك المخلوق الميت.

كانت الأجراس في ركبتها تُصدِرُ أصواتًا كالخشخشة وهي تحادث أصدقاءها من العالم الآخر!

– هل تسمعينهم فعلًا؟

– غالبًا.

– ماذا يقولون؟

– لا شيء، إنني فقط أذهب وألعب معهم.

– ألا يجدون مَن يلعب معهم؟ ولماذا يضايقونك؟

هزت كتفَيها في لا مبالاة، وأحسستُ بالأسى، ثم خطرَت ببالي فكرة.

– لماذا لا تأتين بهم إلى هنا؟ حين يستدعونكِ في المرة القادمة قدِّمي لهم الدعوة للحضور ومشاركتنا اللعب.

هزَّت رأسها قائلة: إنهم لا يستطيعون.

– ولِمَ لا؟

– لأنهم لا يقدرون على الحركة كما نفعل نحن، كما أنك لا تستطيع الذهابَ إليهم.

[1] Àbikú الطفل الذي يُولد، ثم يموت، ثم يُولد، ثم يموت، وهكذا. (المترجم)

لم تكُن «بوكولا» تُشبه «تيني» أو تُشبهني أو حتى أصدقاءها في العالم الآخر، كانت وحدها التي تستطيع العبور بسهولة من عالم إلى آخر.

شاهدتُها ذات مرة وهي تعاني نوبة دُوار، كانت عيناها جاحظتَين وأسنانها مطبقة بينما كان جسدها يترنح وأمها تبكي وتقول: ساعدني، إنها تعاني بردًا شديدًا.

ثم راحت بيأسٍ تدلك جسدها كي تعيد إليها الحياة حين سارع والدها بالحضور من المكتبة عبْر الباب المجاور وفتح فمها بقوة، انتزعَت الخادمة الزجاجة من الدولاب، وصبت بعض السائل في حلقها، لكن «بوكولا» ظلت على حالها، لكنها بعد لحظات تجاوزَت الخطر، وقل التوتر بين أهل البيت، تمدَّدَت على السرير، وعادت إلى وعيها تمامًا، واكتسى وجهها بجمال أخَّاذ فجلستُ أنا و«تيني» بجوارها نتأملها حتى استيقظَت، كانت أمها مشغولة بإعداد شوربة السمك، وفي العادة كنا جميعًا نأكل من نفس السلطانية، لكن زوجة بائع الكتب وضعَت هذه المرة بعضًا من الشوربة في إناءٍ صغير، وأضافت إليه سائلًا ثقيلًا من الزجاجة، وكان مالحًا وذا طعمٍ رديء ورائحةٍ كريهة، رفعَت رأس ابنتها تساعدها في احتساء مشروبها الخاص، وقُمنا نحن باحتساء الشوربة، شربَت «بوكولا» جرعتَها بدون أية شكوى؛ فقد كانت تعرف ذلك المشروب، وحين تجاوزَت «بوكولا» الأزمة بادرنا بالخروج كي نلعب، لكن أمها أصرَّت على بقائنا.

أخبرتُ «بوكولا» عن الأزمة التي مرت بها وقلتُ: هل كان زملاؤك ينادونك أثناء ذلك؟

قالت: لا أتذكَّر.

– لكنك تستطيعين فِعل ذلك وقتما تشائين!

– نعم، خاصة حين يفعل أبي أو أمي أو الخادمة شيئًا يضايقني.

– ولكن كيف يحدث ذلك؟ كيف فعلًا يحدث ذلك؟ إن عينَيك تتحولان إلى اللون الأبيض.

– حقًّا! هل يحدث ذلك؟ كل ما أعرفه أن …

توقفَت برهة عن الحديث ثم استطردَت: عندما يرفض أبي أو أمي طلبًا لي، أو يقولان لي لا، فإنني عندئذٍ أسمع زملائي الآخرين يقولون: «هل ترَيْن؟ إنهم لا يريدونك معهم، وهذا ما قُلناه لك.»

فيُخامرني شعورٌ جارف بالذهاب بعيدًا، وأقول لأبي وأمي: سوف أذهب، سوف أذهب إذا لم تفعلوا كذا وكذا، وإذا لم يفعلَا بالفعل فإنني أشعر بالإغماء، ويُصيبني الدُّوار.

– وماذا يحدث إذا لم تعودي كما كنت؟

– لكنني دائمًا أعود.

لم تكن زوجة بائع الكتب تنزعج من طفلتها الخرقاء، كانت امرأةً طيبةً ورقيقة، وكما عرفنا فيما بعدُ أن «بوكولا» لم تكن قاسية؛ فهكذا شأن الـ Àbikú؛ إذ ليس بمقدورها التحكُّم في نفسها.

فكَّرتُ في كل الأشياء التي كانت «بوكولا» تسأل عنها، والأشياء التي يعجز الوالدان عن تحقيقها، فقلتُ لها: ماذا لو عجزوا عن تلبية طلبٍ مثل سيارة فاخرة مثلًا؟

قالت بإصرار: لا بد أن يقوموا بما أطلبه.

قلت: لكن ثمَّة أشياء ليست في مقدورهم؛ إذ إن الملك نفسه لا يملك كل شيء.

قالت: حدث في آخر مرة أن طلبتُ عمل سهرة، فرفض أبي قائلًا: كانت لنا سهرة منذ وقتٍ قريب فأصابني الدُّوار والإغماء.

اعترضَت «تيني» وقالت: لكن الواحد منا لا يستطيع القيام بسهرة كل يوم.

أجابت بعناد: أنا لا أقوم بعمل سهرة كل يوم، ويومها لم أكن أطلبها لي؛ فقد كانت لزملائي حين أخبروني أن أرتِّب لهم سهرةً ما دمتُ لا أستطيع الذهاب معهم.

كنتُ ألاحظها بدقة حين هزت كتفَيها بلا مبالاة، وتغيَّر وجهها الدائري الجميل، فهل كانت تدبِّر رحيلًا آخر؟!

٢

في كل صباح كانت «تيني» تذهب للمدرسة قبل أن أستيقظ، وكانت تعود عند منتصف النهار حاملة لوح الكتابة، كانت ترتدي الزي الكاكي، مثل كل الأولاد الذين كانوا يتحركون في شكلٍ دائري بغير نظام حول البيت، منذ الصباح وحتى ما بعد الظهر، مشغولين باللعب أو الدرس.

كان أحدهم في ساعة الصباح يشد السلسلة المتدلية من جرس المنزل فيبدأ الجرس في الرنين، وتبدأ التحركات حول مبنى المدرسة، وثمَّة بهلوانيات وسباق وشجار بين التلاميذ حتى ينقسموا إلى مجموعاتٍ كثيرة، وعندما يسود النظام يظهر الأب من حيث لا أدري بخطواته الكبيرة ويخطب فيهم ثم ينتحَّى جانبًا، فيتقدم أحد أعضاء المجموعة الكبيرة للأمام ويغني بينما الآخرون إلى مبنى المدرسة في صفَّين على إيقاع الأغنية.

كانت الأغنية تتغير كل يوم وكنتُ أطرب لأغنية بعينها كانوا يغنُّونها بمتعة أكثر من بقية الأغاني، حتى إنهم كانوا يرقصون عليها بدلًا من المشي، ولم يكن ذلك يضايق المدرسين وإنما كانوا يبتسمون في وجوههم، ويشيرون إلى التلميذ الذي يقرع الطبول وهو يخفض أكتافه بطريقة ملفتة للنظر.

كانت الأغنية باللغة الإنجليزية، لكن الكورس كان يُغَنَّى بلغة اليوروبا، واستطعتُ فقط أن أسمع الكلمات الأخيرة.

B’ing njo ma Je’ko
B’ole nja, ma Je’ko
Eni ebi npa, omo wi ti’re[١]

لم أسمع من قبلُ مثل ذلك الغناء المليء بالحياة في أي مدرسةٍ أخرى، لكنني سمعتُه فقط في تلك المدرسة التي التحقَت بها أختي، وبدأَت غَيرتي تزداد يومًا بعد يوم، فشعرَت أختي بتلك الغَيرة، وراحت تراوغني بعدم الإجابة على أسئلتي، أو إشباع رغبتي في التعرف على الأجزاء الناقصة من تساؤلاتي.

«أنا ذاهبٌ إلى المدرسة»، هكذا أعلنتُ في يوم ما فانطلقَت الضحكات في الحال، وقالت أمي في هدوء: انتظر حتى تكبر مثل أختك.

ذات مرة اختلستُ النظرات داخل مبنى المدرسة، فكانت همهمات التلاميذ ذات نغماتٍ غاضبة لم أستطع أن أتبيَّنها، ومن خلال الشبابيك المفتوحة لفصول المدرسة شاهدتُ رءوس التلاميذ في حالة من التركيز، وكان المدرس بهيئته الجليلة يتحرك في حجرة الدرس جيئة وذهابًا وهو يتحدث إلى التلاميذ الذين يستمعون بانتباهٍ شديد، وكانت تتبادر إلى سمعي أغنياتٌ مختلفة من أجزاءٍ متفرقة من كل مبنًى، وفي بعض الأحيان كنتُ أسمع غناءً مباشرًا بمصاحبة موسيقى الهارموني، وبعد ممارسة الطقوس الداخلية والشعائر الدينية كانوا يخرجون في مجموعاتٍ مختلفة يلعبون ألعابًا كثيرة، ويقفزون في كل مكان، ويلتقطون الأوراق والأغصان التي تكسو الأرض، ويكنسون الطرق، ويقلِّمون المروج والأشجار، كانوا يطوفون هنا وهناك يجرفون الأرض بالسيوف والمكانس والعِصِي، وينحتون الخشب الخيزران، ويقومون أيضًا بتشكيل الطين والصلصال إلى أشكالٍ كثيرة وغريبة.

كنتُ أرى تلك النشاطات المختلفة من فوق رصيف منزلنا؛ حيث ألعب وحدي بينما كانت العمة «لاوانل» تُراقبني بعينَيها القلقتَين، كانوا يلعبون لعبة الدوائر ويتشاجرون على الكرة، ثم يعودون إلى كتبهم وتمارينهم وألواحهم التي يكتبون عليها، كانوا يضعون

[١] إذا شب حريق في البيت يجب أن أتناول طعامي
إذا سرقوا البيت يجب أن أتناول طعامي
اتركوا الطفل الجائع يتكلم.

الكتب في صناديقَ صغيرة من القصدير أو الخشب، أو في حقائبَ مصنوعة من ليف النخل، وكان بعضهم يربطها بحبل ويحملها فوق رأسه، أو يعلِّقها فوق كتفه، وهم ذاهبون إلى فصولهم للدرس وممارسة طقوسهم الدينية الغامضة.

كنا ما نزال نلعب معًا، لكن «تيني» وزملائي صار لهم عالمٌ جديد في اللعب بدخولهم المدرسة، أصبح لتيني مكانٌ جديد تلعب فيه وترسم فيه، وكانت تستيقظ مبكرًا عني في كل صباح؛ حيث يقودها واحدٌ من الأولاد الكبار في منزلنا إلى المدرسة، فأصبحَت ألعابي كلها بلا قيمة، لكنني كنتُ أضحك رغم وحدتي، ولم أعُد أطلب اللحاق بتيني في المدرسة، غير أنني استيقظتُ ذات صباح مع تيني، واغتسلتُ في نفس الوقت الذي تغتسل فيه، ثم تناولتُ إفطاري، وقررتُ بإصرارٍ شديدٍ أن أرتدي تلك الملابس التي هي أقرب إلى زي المدرسة، وتناولتُ بعضَ الكتب من فوق مكتب أبي، ثم انتظرتُ في الحجرة الأمامية حتى ذهبَت «تيني» مع رفيقها، وما هي إلا بضع دقائق حتى حملتُ الكتب وتسللتُ وراءهما بخفة حتى وصلتُ المدرسة، انتظرتُ قليلًا عند الباب، ورأيتُ المقعد الذي تجلس عليه «تيني»، ثم اندفعتُ متسلقًا المكان، ووجدتُ نفسي إلى جوارها.

كانت «لاوانل» هي التي اصطحبَت «تيني» إلى المدرسة في ذلك الصباح، وعندما رأَتني صرخَت بتحذير ودهشة: ما هذا الذي تفعل؟

لم أهتم بها، وكان أن سمع المدرس تحركاتٍ غريبة بين التلاميذ، وعند دخوله الحجرة كان جميع التلاميذ يضحكون من وجودي، تطلَّعوا نحوي وهم يشيرون بأصابعهم من الأمام والخلف دون أن يتوقفوا عن الضحك.

كان المدرس المسئول عن قسم الأطفال صديقًا لأبي، وغالبًا ما كان يأتي لمنزلنا، فلم أجد صعوبة في التعرف عليه، وكم راقني أنه لم يكن يضحك مع الآخرين.

وقف أمامي وسألني: هل جئتَ لمرافقة أختك؟

– لا، بل جئتُ من أجل المدرسة.

نظر إلى الكتب التي تناولتُها من مكتب أبي، وقال: أليست هذه كتبَ أبيك؟

– نعم، هي كذلك، وأنا أريد أن أتعلم منها.

– لكنك ما زلتَ صغيرًا يا «وول»!

– إن عمري ثلاث سنوات.

قاطعَتْني «لاوانل»: ثلاث سنوات يا «وول»؟! لا عليك يا أستاذ، إنه سيبلغ الثالثة في يوليو القادم.

قلتُ: تقريبًا ثلاث سنوات، وعلى أية حال فلقد جئتُ إلى المدرسة ومعي الكتب.

توجَّه الرجل إلى مدرس الفصل قائلًا: سجِّل اسمه في القائمة.

ثم بادرني بقوله: وبالطبع فإنك لست مضطرًا للمجيء كل يوم، تعالَ فقط حين تشعُر برغبة في المجيء؛ فقد تستيقظ غدًا صباحًا وتشعر بأن رغبتك في اللعب والبقاء في المنزل أكبر من رغبتك في المجيء إلى المدرسة.

نظرتُ إليه بدهشة، وكانت الخرائط الملونة والصور والأشياء المعلقة على الحائط وتلك الشبابيك والأحجار الإردوازية وزجاجة الحبر ذات الثقوب الدائرية والأقلام وكتب الرسم ورسوم الحيوانات والإنسان والسبورة والطباشير، إنها حجرةٌ جميلة للعب، وسرعان ما فكرتُ في أشياء كثيرة غامضة، وارتبطَت المدرسة في ذهني بكَومةٍ من الكتب التي كان أبي يتحدث عنها باهتمام في الحجرة الأمامية من المنزل، والتي كانوا يخطفونها مني فور أن تمتدَّ يدي إليها.

كل ذلك جعلَني أعلن بثقة: سوف أحضُر كل يوم.

أصبح منزل السيد «أولا جباجو» الأعزب الواقع خلف المدرسة هو منزلنا الثاني الذي تتناول فيه الغداء، وكانت البطاطا هي طعامه المفضل، وسرعان ما أصبحتُ شريكه الحميم الذي تعرفتُ من خلاله على «أوزيكي» الذي أصبح بدوره صديقي القريب، كان «أوزيكي» يعشق البطاطا أكثر مني ومن السيد «أولا جباجو»، وكان طبيعيًّا أن يرافقني حيث توجد وجبة الإيان iyan[٢] في منزلنا أو عند السيد «أولا جباجو».

تملَّكَتْني الدهشة حين سمعتُ أمي تقول: هذا الولد سيكون مثل أبيه، إنه يأتي بالأصدقاء إلى المنزل في وقت الطعام دون أن يُخبرَنا.

تعجَّبتُ وقلتُ لنفسي: لا أرى سببًا لإخبار أحدٍ بذلك، إنه لشيءٌ طبيعيٌّ في العالم أن يأتيَ الواحدُ بصديقٍ إلى المنزل في وقتِ الطعام.

أصبح «أوزيكي» صديقي الملازم لي، وصار أحدَ ملامحِ منزلنا التي اعتدنا عليها، وبخاصة في أيام الـ (iyan) حتى إن أحد أفراد منزلنا كتب له أغنية تقول:

osiki oko oniyan
Ati nwa e, a ko rie[٣]

---

[٢] طعام يحتوي على البطاطا.

[٣] أوزيكي، سيد بائعي البطاطا، بحثنا عنك في كل مكان، وفَشِلنا في العثور عليك.

وكانوا يبدَءون في الغناء فور أن يشاهدونا معًا وكلٌّ منا ممسكٌ بيد الآخر في طريق عودتنا من المدرسة.

كانت البطاطا اختبارًا أوليًّا لصداقتنا.

– كنا نقضي ساعات المدرسة المنتظمة دون أي شعورٍ بالملل؛ لأن الاختلاف كان كبيرًا بين فصل المدرسة والمكان الذي نعيش فيه، كانت المدرسةُ بما فيها من شخصياتٍ وأشكالٍ مختلفةٍ تُعَد اكتشافًا جديدًا بالنسبة لي، أنا الذي يهوى الجديد، مما جعلَني أتأخر بعد ذهاب كل التلاميذ متوقفًا عند الأشياء التي تأخذ أشكالًا ومعانيَ وأبعادًا مختلفةً لم أرَها من قبلُ، أحيانًا كنتُ أتسلق الصخور الممتدة، وكان «أوزيكي» يفتقدني حين يتقدمني كثيرًا ولا يجد لي أثرًا.

في الثالثَ عشرَ من يوليو، عام ١٩٣٨م، كان الجميع مستعدِّين، اتجهتُ فورًا من المدرسة إلى المنزل بصحبة أعز الأصدقاء، وعلى رأسهم «أوزيكي»، خلعوا أحذيتهم في الحجرة الأمامية، وتوجَّهوا إلى الردهة، وكان الضيوف جميعًا في أحسن حالاتهم، ينتظرون بشغفٍ الطعامَ والشرابَ وسماعَ الموسيقى من الجرامفون وبعضَ الألعاب والتسلية، ولأنني أنا الذي وجَّهتُ لهم الدعوة كنتُ أتصرف وكأنني ربُّ البيت، ثم جلستُ بينهم، وانتظرتُ بداية الحفل. كان المنزل هادئًا فلم يكن إسحاق قد جاء من المدرسة بعدُ، وكانت أمي ما تزال في دكانها مع «ديبو»، الذي كان مربوطًا بشريطٍ إلى ظهر العمة «لاوانل»، ولكن أين الآخرون؟ كان من الواجب أن تتواجد أمي لترحِّب بأصدقائي، إن «تيني» أيضًا لم تكن بالمنزل، وقد كانت تستطيع القيام بخدمتنا؛ لأنها الآن قد كبرَت بما يكفي.

خرجتُ إلى الحوش الخلفي لعلي أجد واحدًا من أبناء عمي، أو أرى ما يدُل على الإعداد لعيد الميلاد، لكن أحدًا لم يكن هناك، وكان المطبخ فارغًا لم أستطع أن أشم فيه رائحةً توحي بالطعام، ناديتُ بأعلى صوتي معلنًا عن وجودي مع الضيوف، ثم صَحتُ: أين أنتم، أين أنتم؟

أصابني الارتباك، وعُدتُ أتفحص الدولاب والمائدة في حجرة الطعام فلم أجد شيئًا على الإطلاق، لم أجد كئوسًا من تلك التي يتبادلون بها التحية ولا أكوابًا ولا حلَّة الكعك أو الأرز، كيف أتصرَّف إزاء عيد ميلادي؟ لم يكونوا في حاجة إلى من ينبههم بذلك، راجعتُ التاريخ في النتيجة مرةً أخرى لأطمئن نفسي فكان هو نفس اليوم، ثم جلستُ مع ضيوفي في انتظار حدوث شيءٍ ما.

جاءت أمي بعد لحظات و«ديبو» فوق ظهرها، ثم تبعَتْها «لاوانل» وآخرون حاملين الأشياء التي يأخذونها معهم كل صباح إلى الدكان، هزَّت أمي رأسها، وحرَّكَت عينَيها

بطريقةٍ غريبة، ثم توقفَت عند الردهة وأطالت النظر إلى أصدقائي، ورمقَتْني بنظرةٍ خاصة دون أن تتوقف عن هزِّ رأسها وسارعَت إلى الطبخ؛ حيث سمعتُها تُصدر أوامرها بسرعة تجهيز الأواني، أومأتُ للضيوف برأسي، وشعرتُ بالرضا، ثم قلتُ لهم: سوف نبدأ الاحتفال بعد قليل.

تقدَّمَت «تيني» وأخبرتني أن أمي تريدني في المطبخ، كانت يداها تغوصان في الدقيق الذي تعجنه، وقالت دون أن تنظر لي: والآن يا «وول» أخبرني لماذا جاء أصدقاؤك؟

كان السؤال غريبًا، لكنني أجبت: إنه عيد ميلادي!

قالت بتهكم: عيد ميلادك!

بينما كانت «لاوانل» والآخرون يضجُّون بالضحك حيث استطردت أمي: أتعرف بأنكم كنتم ستنتظرون طويلًا لو لم تكن «تيني» قد جاءت وأخبرتني؟!

أشرتُ إليها بأن اليوم هو عيد ميلادي فقالت بنفاد صبر: لا أحد ينكر هذا، لكنني كنت أنوي أن أصنع شيئًا خاصًّا هذه الليلة ولكن، استمع، لا يجب أن تدعو أحدًا إلى البيت دون إخبارنا، ها نحن لا ندري ماذا نفعل، يجب أن تقول لنا.

أزعجَني ذلك التوبيخ، وصرتُ قلقًا بضع لحظات، ولم أجد أعذارًا أتقدم بها، ففقَد عيد ميلادي كثيرًا من بهجته التي افتقدتُها أيضًا في بيت القس، يوم وقعتُ فوق رأسي من على الأرجوحة.

عندما جاء دوري في التسلية رحتُ أغنِّي، وكانوا يردِّدون ورائي بينما «أوزيكي» يطرق فوق المائدة بمهارة طرقاتٍ متناغمة: «كو، كو، تي، كو، كو».

سألَته أمي بمزاح: هل عملتَ طبَّالًا من قبلُ مع المتنكرين؟

كانت دهشتُنا عظيمةً حين أجاب: نعم، وكنتُ أرتدي قناعهم الذي يمرُّون به في المدينة في عيد «إيجونجون» egúngún[٤] السنوي.

كنتُ أشاهد egúngún من قبلُ في الحوش الخلفي فوق الحائط وهم جالسون فوق أكتاف جوزيف، وكنتُ أعرف بأنهم أرواح الموتى، وأسمعهم يتحدثون بأصواتٍ نابعة من الحنجرة، وكانوا يجلبون الخوف أكثر من اللصوص، وفي وقتٍ ما لاحظتُ أن كثيرًا منهم يلعب ويمرح مع الأطفال، وذات مرة كنتُ قريبًا من أكتاف جوزيف عندما مرَّ أحدهم

[٤] egúngún: أرواح الموتى. (المترجم)

بالقرب من الحائط، ونظر إلى أعلى وهو ينادي ملء فمه بطريقةٍ مألوفة Nle o, omo Tisa gba.[٥]

تعجَّبتُ لكونهم يعرفونني، فشرح لي جوزيف بأنهم يعرفون كل شيء عن كل الأحياء، كما أنهم يعيشون مثلنا، وفي حفل عيد ميلادٍ تزاحمنا حول «أوزيكي» وسألتُه: أريد أن أراهم.

ارتفع صوتُ ماما بالتحذير قائلة: ماذا تريد؟! هل حقًّا ما سمعتُ بأنك تريد الذهاب لرؤية egúngún في بيتهم؟!

قلتُ متجاهلًا إيَّاها: «أوزيكي»، هل ستأخذني؟

أجابَتْ: «أوزيكي» لن يأخذك، ومن الأفضل ألَّا يسمعك أبوك.

– ولِمَ لا؟ هو أيضًا يستطيع أن يأتي، نستطيع أن نأخذه يا أوزيكي، أليس كذلك؟ إنه رجل، والنساء فقط هن اللاتي لا يستطعن الذهاب إلى هناك.

تطلَّعَت أمي حولها، ومضت نحو «أوزيكي» وهي تهزُّ رأسها كي تسمع بعض الحكايات عن الأنواع المختلفة من egúngún، كان لهم الكثير من الحيَل والخدَع السحرية، وكانوا يحوِّلون أنفسهم إلى ثعابين ونمور وخراف، ثم يعودون مرةً أخرى كما كانوا، ولقد شاهدتُ بعضًا منهم يلعب الأكروبات فوق الحائط، ويقفز في الهواء إلى الأمام والخلف.

سألتُ «أوزيكي»: هل أقدرُ أن أعودَ مثلهم إذا متُّ؟

قال: لا أعتقد؛ فلم أسمع قَط عن مسيحيٍّ أصبح egúngún.

– هل يتحدَّثون الإنجليزية في عالمهم؟

هزَّ «أوزيكي» كتفَيه دون اهتمام: لا أعرف، لكن egúngún الخاص بنا لا يتحدَّثون الإنجليزية.

كانت صورةُ ثلاثة من الرجال البيض مرسومةً فوق زجاج الشبابيك خلف مذبح كنيسة القديس بطرس، وكانوا يرتدون أروابًا تشبه كثيرًا أروابَ egúngún، أحسستُ بشيءٍ غريبٍ نحو تلك البلاد التي جاء منها أولئك الناس ذوو اللون الأبيض.

كنتُ أُحدِّق في الوجوه الثلاثة حين قالت «تيني»: إنهم ليسوا egúngún، إنهم الرسل، والثالثة للقديس بطرس نفسه.

---

[٥] Nle o, omo tisa Agba: تحياتي يا ابن المدرس الأول. (المترجم)

– وإذن لماذا يرتدون نفس ملابس egúngún؟

– إنهم مسيحيون وليسوا متنكرين.

– إنهم ميِّتون، أليس كذلك؟ لقد أصبحوا egúngún لأنهم يرتدون هذه الأرواب، دعينا نسأل «أوزيكي».

– قال «أوزيكي»: لم أسمع حتى الآن عن أيِّ مسيحيٍّ أصبح egúngún، ثم ابتسم فجأة واستطرد: انتظر، لقد تذكَّرتُ، قال لي أبي منذ سنواتٍ مضت إنهم رأَوا الـ egúngún الخاص «بأجيل»، هل تعرفه؟ كان ضابطَ المنطقة هنا من قبلُ.

رحتُ ألفُّ وأدور حول «تيني» بفرحٍ شديد، وتملَّكَني شعور بالنصر، ثم قلتُ: هل ترَين، أستطيع الآن أن أتحدث إليهم من شُباك الكنيسة حين يأتون، إنني متأكد يا «تيني» أنهم يتحدثون الإنجليزية.

– أنت لا تعرف عما تتحدث، أنت طفلٌ صغير.

ثم نظرَت تيني إلينا باحتقار وتركَتْنا وحيدين.

قلتُ لأوزيكي: لا تشغل بالك بها؛ فهي تعرف بأنني أحب ذلك الذي في الوسط، إنه القديس بطرس.

وقد قلتُ لها من قبلُ إنه egúngún الخاص بي، إذا ذهبتُ معك فقد نستطيع بعد ذلك الذهاب إلى مقبرة الكنيسة، ونساعده على الخروج من الأرض بنفس الطريقة.

قال «أوزيكي» ساخرًا: بوجهه المكشوف مثل هذه الصورة؟

فقلتُ: لا، بالطبع لا، إن هذه صورته فقط، لكنه عندما يأتي من الأرض سيكون مرتديًا ملابسه، وسأكون قادرًا على محادثته.

شعر «أوزيكي» بالإجهاد، ونظر إليَّ قائلًا: أنا لا أعرف، فعلًا لا أعرف إذا كان حقًّا سيصبح egúngún!

– لكنك قلتَ منذ قليل إن egúngún الخاص بضابط المنطقة قد خرج في موكبٍ من قبلُ.

حاول «أوزيكي» أن يشرح: لم يكن نفس الشيء.

ثم اعترف أخيرًا بأنه حقًّا لا يفهم، فقلتُ له إن ضابط المنطقة كان مسيحيًّا وذا لونٍ أبيض.

كان «أوزيكي» خائفًا، وشعرتُ بخيبةِ أملٍ شديدةٍ لعدم معرفتي إحضار الروح الخاصة بالقديس بطرس بدون خبرته.

٣

كان السور الحديدي عاليًا بالنسبة لي أنا الصغير، ولم أستطع قط أن أتسلقه كما يفعلون وهم واقفون عليه متطلعين إلى الخارج معلقين على ما يشاهدون، حاولتُ كثيرًا أن أتسلق إلى جوارهم لكنني كنتُ أحتاج لجهود عظيمة، وكان من الخطر أن أفعل.

شاهدني «جوزيف» ذات يوم وقرأ في عيني تلك الرغبة فرفعني عاليًا فوق أكتافه، واستطعتُ من فوق سور الفناء أن ألقي بأول نظرة، كانت مجموعة من الراقصين تعبُر الطريق المؤدي إلى النصب التذكاري خلف الكنيسة هي أول ما وقعَت عليه عيناي.

قال «جوزيف»: إنه القصر.

كنتُ قد تعرفتُ على الكنيسة والنصب التذكاري وبعض ملامح الأرض الممتدة ثم البوابة الكبيرة للبيت الكبير، وأدركتُ أن الأسوار الخارجية لبيت القس كانت متصلة ومتلاحقة، وعن طريقها يمكن الوصول إلى البوابة والشبابيك، ولما كنتُ ما أزال فوق كتفَي «جوزيف» رأيتُ سور المخزن حيث يحفظون أواني الطهي وأدوات الحديقة وسور المخزن الآخر الذي يحتوي على خشب الحريق والدجاج، وتوقفَت عيناي أمام منزل القس المنتهي بسياجٍ صغير يؤدي إلى بوابة البيت عبْر مدرسة البنات المنخفضة متعامدًا مع المكتبة.

كانت المكتبة هي المبنى الوحيد في البيت الكبير الذي يواجه الشارع.

بامتداد السور كانت بعض النوافذ القليلة للتهوية وتجديد الهواء، وغالبًا ما كانت تغطِّي السور أشكالٌ مختلفة من أوراق الموز المنسابة والجوافة وأوراق النبات الشائكة التي جرحَتْني في وجهي، وكان واضحًا أننا هنا في هذا البيت الكبير نعيش مع أنفسنا في مدينة منفصلة عن «آكية»، تلك المدينة المتصلة بأسقفٍ صدئة، كانت بقية الأشياء غامضة تتخللها بعض الشقوق.

في المرة التالية حين سمعتُ نفس الأصوات لم أضايق نفسي بمحاولة تسلق السور، كنتُ أعرف أنني لم أستطع على أية حال، وأنني قد عرفتُ مكان البوابة، فأستطيع عندئذٍ المرور من خلالها إلى الطريق المؤدي إلى الكنيسة بمساعدة «لاوانل»، أو بالإمساك بيد «جوزيف» أو يد ماما؛ حيث يمكنني خارج البوابة الرؤية بوضوح أكثر، دون أن أبذل مجهودًا كبيرًا لمشاهدة كل الأشياء من السور.

عند البوابة تعجَّبتُ، وأصابني قلق كبير؛ فلم يكن بمقدوري أن أصل إلى المسمار الخشبي الذي يفتحون به القفل، طرقتُ بيدي فوق البوابة طرقاتٍ قوية متتالية فقام شخصٌ ما بفتحها.

كانوا جميعًا غرباء؛ فلم يسبق لي رؤية تلك الوجوه من قبلُ، ثم سألتُ نفسي: هل هم مجرد عابرين بالمكان جاءوا إلى البوابة من أجل رؤية أوضح؟

نظروا نحوي بطريقة غريبة، لكنهم أفسحوا لي الطريق إلى المقدمة، ومما أثار دهشتي أنهم كانوا يرتدون زي البوليس وطربوشًا أحمر تتدلَّى منه الأزرار، وكان أحدهم يربط حول خصره طبلة كبيرة جدًّا حتى قلتُ إنه سيقع، لكنه كان متماسكًا بجلده الأبيض، وكانت نظراته مثبتة بإحكام إلى الأمام وذراعاه تلوحان في الهواء ضاربًا بالعصا فوق الطبلة، وكان قائدهم يرتدي صولجانًا كبيرًا يقذف به في الهواء عاليًا في حركة دائرية ثم يقوم بإمساكه بين يدَيه وهو ينزل في نفس المكان، وفي إحدى المرات سقط منه دون أن يتمكن من إمساكه، فأصبح غاضبًا، وأصدر أوامره إلى الفرقة الموسيقية بارتفاع الموسيقى.

لاحظت أن الأولاد الصغار يسيرون خلف الجوقة الموسيقية، وعند نهاية الطريق أبصرتهم صغارًا مثلي فسارعتُ باللحاق بهم، وعند مرورنا بالمكتبة كانت كما رأيتها تمامًا من فوق كتفَي «جوزيف»، شاهدتُ أيضًا المحال التجارية وبعض المباني وكثيرًا من النقوش المكتوبة مثل: «استوديو أكينز. بورتريه لندن» كانت الصور معلَّقة على جانبَي الباب بينما يجلس المصوِّر فوق مقعد خارج الاستوديو واضعًا قدمَه اليُمنَى فوق اليسرى معلقًا الوشاح فوق رقبته وهو يدخِّن البايب، وحين أمعنتُ النظر في المصور عرفتُه على الفور؛ فقد جاء إلى منزلنا يوم مولد «ديبو» لالتقاط بعض الصور، ولم يكن قد خطر ببالي أن أولئك المصوِّرين يملكون استوديوهاتٍ خاصةً بهم، وإنما يعملون بالتصوير في المنازل فقط.

أبصرتُ كلماتٍ محفورةً فوق حائط من الأحجار تقول: «عيادة السيدة ماكتر للأطفال»، إنها السيدة البيضاء ذات القلنسوة المنشاة، التي كانت تزورنا أحيانًا في البيت

حاملةً حقيبتَها المربَّعة، وكنا نعرفها بالسيدة «ماكوتا»، تمنيتُ لو أراها مع زائرٍ أو مريض، لكنني خشيتُ ألَّا أتمكن من اللحاق بالفرقة الموسيقية.

شاهدنا كثيرًا من المنازل التي كانت تشبه الكنيسة والنصب التذكاري، ولقد تعجَّبتُ مرة أو مرتين لابتعادي عن المنزل، ولم أكن أعرف سببًا لذلك الخوف الذي تملَّكَني في كل خطوة.

بعد خطواتٍ من عيادة السيدة «ماكتر» كنا قد وصلنا إلى قسم البوليس، وتخيلتُ أن الفرقة سوف تتوقف، لكنهم دون أن ينظروا باتجاه القسم واصلوا سيرهم، علا صوت النفير، وتلألأَت الأبواق في الشمس، وعند أول تقاطع للطريق وصلنا إلى لافتة تقول: «السيدة ت. بانجوكو – أستاذة الحياكة – لندن»، وعند نفس التقاطع كانت لافتاتٌ أخرى تقول: «إلى لافينوا»، «إلى إيجبين»، «إلى إيبارا»، اتجه الموكب نحو«إيبارا» وعند المدخل كان السوق حيث تنتظر النساء على طول الطريق وأكوام من البضائع المصطفة فوق العربات، حدثَتني نفسي: إن العالم مليء بأشياء كثيرة!

كنتُ قد تأخرتُ في السوق حين تخللَت أنفي رائحة البطاطا، ورأيت الخضروات والسمك المجفف وجراد البحر واللحوم فوق الطاولة، ولولا أصوات الفرقة الموسيقية لما استطعتُ اللحاق بهم، كان القصاب ماهرًا في عمله مثل رجل البوليس الذي كان يرمي بالصولجان إلى أعلى ويمسكه بيده، وكان يبدو في كل لحظة وكأنه سيقطع أصابعه، لكن السكين كانت تنغرز بين أصابعه فوق الطاولة لتقطع اللحم إلى قطعٍ صغيرة متساوية.

وبعد قليلٍ كان قسم الملابس وأدوات الحياكة ولعب الأطفال، وأيضًا حوامل الكتب والأقلام الصغيرة والمطاط والحبر والكراسات، ثم توقفتُ فجأة حين رأيتُ رأس حيوانٍ محنطة كانت متدلية من رفٍّ خشبي وجمجمة بيضاء بدون جلد أو لحم، وذات تجاويف وثقوب كبيرة فارغة في الأنف، ثم ورق الشجر المجفف، وكان قسم آخر يحتوي على مجموعة من الأحجار والعقود وقطع من الحديد والبودرة الملونة في أكوام صغيرة وثمة زجاجات مملوءة بسوائل غريبة، وزجاجات أخرى كان من الممكن رؤية أوراق الشجر بداخلها، عرفتُ أنها مثل التي كان يُحضرها أبي، وكنا نستخدمها كعلاج حين يشعر أحدنا بالمرض.

كانت أيضًا الثعابين والفئران المحنطة، وكان زبائن هذا القسم من النساء العجائز اللاتي كن يجلسن دون خوف، حتى إنهن لم يتأثرن بموسيقى الفرقة التي اهتز لها الجميع.

كانت لافتةٌ أخرى تقول: «مدرسة أبيكوتا» فتذكرتُ «رانسوم كوتي» الذي يعيش مثل أبي في إرسالية المدرسة، كان «كوتي» رئيسًا، وحاولتُ أن أستعيد ما قاله أبي عن الفرق بين الرئيس والناظر، ولم يهمني شيء سوى أنني كنتُ متأكدًا من ذهابي إلى هذه المدرسة بعد انتهائي من مدرسة القديس بطرس، وبمحاذاة الأسوار الحجرية للإرسالية لم أرَ سببًا لانتظاري، كان مبنى الإرسالية الرئيسي والطريق الواسع النظيف باتجاه ذلك المنزل الحجري ذي الأعمدة المنحنية محاطًا بأشجار «اليوجينفيلايا» مثل فناء الأساقفة في بيت القس، لكنه كان أكثر تأثيرًا في النفس، وضعتُ وجهي بين حديد البوابة قائلًا: لماذا لا أدخل الآن وأبدأ تعليمي؟ ثم تذكرتُ أنه يوم السبت حيث إجازة المدرسة، وعندئذٍ قلتُ لنفسي: على أية حال فإن يوم الاثنَين مختلف، وسوف أعود دون صعوبة بعد أن عرفتُ الطريق.

عندما لحقتُ بالموكب اعتقدتُ أنني فهمتُ الفرق بين الرئيس والناظر، إن الرئيس هو من يرأس المدرسة ويُشرِف عليها، مثل الرجل الذي لم يمنعني من الحصول على مكانٍ يوم أن تسلَّلتُ خلف أختي «تيني» خاصة وأنني ابن الناظر، إن الرئيس على أية حال ضيفٌ دائم في منزلنا وتدعوه أمي بالعم، وكنا نملك الشجاعة لمناداته بالمثل غير أنني كنتُ أفضِّل اسم «داودو» الذي يلائم مظهر الرجل وصوته العميق وإشاراته المليئة بالطاقة والحركة، كان يركب دراجة لم يحدُث أن رأيتُها من قبلُ، وذاتٍ يوم إلى جوارنا في «آكية» وقع من الدراجة وارتطم بالأرض بينما كنا نطلق الصفير من فوق السور، فجاءوا به إلى منزلنا، وراحت أمي تغلي الماء وتُعِد الضمادات والقطن، ثم جاءت الممرضة التي دخلَت الحجرة، وقالت لأبي: يجب أن يذهب إلى المستشفى؛ فالجرح في فخذه كبير.

سمعتُ أبي يُتمتِم بكلام عن الآلة التي وقعَت عليه، وأصابته بذلك الضرر، وبعد خروج «داودو» من المستشفى اشترى سيارة ولم يعُد يستخدم الدراجة قط.

كان «كوي» ابنه الأول، وكنتُ أنا و«تيني» ندعوه بالعم «كوي»؛ لأنه كان أكبر منا بكثير، وبعد تلك الحادثة كان يداوم على زيارتنا في المنزل، ثم عرفنا أن سيارة «داودو» هي السيارة الثالثة فقط في كل المدينة؛ إذ إن «آلاك» نفسه كان يملك واحدة، وكانت الثانية للرئيس الغني الذي يعيش في «أوتوكو»، حتى إن ضابط المنطقة الإنجليزي لم يكن يملك سيارة، كان يقود موتوسيكلًا أو يتنقل على ظهر حصان.

شعرتُ بالتعب، وفكرتُ بالجلوس إلى جانب الطريق لأنعم بقسطٍ من الراحة، أصدر الشاويش أمرًا بدخول الفرقة الموسيقية إلى الإرسالية، وفجأة توقفَت الموسيقى ودقات الطبول وصليل الصنج الصاخب.

اكتشفتُ عندئذٍ أنني وحيدٌ تمامًا، اختفت مجموعة الأطفال التي كانت تتبع الفرقة وتقلِّدها وتوقَّف صدور الأوامر، ولم أعُد أبصِر أحدًا أو أسمع صوتًا، كانوا جميعًا قد اختفَوا وبقيتُ وحدي، ثم أدركتُ عن يقين بأنني لم أكن أعرف أين أكون، أدركتُ فعلًا أنني لا أعرف!

كان الشاويش يعدِّل من كعب حذائه حين تحدث بلغةٍ غريبة إلى شخصٍ ما كان مختفيًا خلف المبنى، وعند خروجه رأيته يرتدي زيًّا أنيقًا، وكان أول ما شد انتباهي أنه رجلٌ أبيض البشرة والشعر، وله مشيةٌ تشبه مشية رجال البوليس، كان يرتدي حذاء من الكاوتش وزيًّا كاكي اللون، ثم عرفتُ أيضًا أنه رجل بوليس، وقف بخطواتٍ جامدة، واستدعى أحد أفراد الفرقة الموسيقية بينما كان الشاويش يُصدر الأوامر استطعتُ أن ألتقط منها بعض الكلمات الإنجليزية القليلة، تفرَّق العرض وذهبوا كلٌّ في طريق ما عدا الشاويش، الذي بقي مع الضابط الأبيض يتبادلان الحديث حتى شاهداني.

كنتُ في الحقيقة أحسُّ بتعبٍ شديد، وعندما شاهدني ذلك الرجل الأبيض وراح يتملقني انتابتني فكرة الهرب.

أشار نحوي وقال شيئًا للشاويش فتلاشت فكرة الهرب؛ إذ لم يكن باستطاعتي أن أفعل ذلك، بالإضافة إلى عدم معرفتي أي الاتجاهات التي يمكنني الهرب نحوها، تطلع الشاويش أيضًا نحوي، وراح يمشي ناحيتي، وعندئذٍ كان من المحتمل أن أجري رغم إحساسي الشديد بالتعب.

قلت لنفسي: يجب أن أجري، ها هو الرجل قادم.

لكن الضابط الأبيض أوقفَه، وتقدَّم هو بنفسه، ودون أن أدري وجدتُ نفسي أعود إلى البوابة، فابتسم الرجل ورفع كلتا يدَيه بإشارة تعني أنني لم أفهم، وعندما اقترب مني وأصبح أمامي مباشرةً انحنى إلى أسفل، وسألني بلهجةٍ لم أسمعها من قبل: Kini O Fe nivi yen?[١]

عرفتُ الكلمات التي هي لغتي الخاصة، لكن طريقة نطقه بها جعلَتني لا أحسُّها، فنظرت إلى الشاويش مناشدًا إياه المساعدة، ثم قلتُ: أنا لا أفهم. ماذا يقول؟

تلألأَت عيون الضابط بوميضٍ غريب، وقال: أوه، أنت تتحدث الإنجليزية!

[١] أَخبِرني بالحرف الواحد، ماذا تريد؟

أومأتُ برأسي قائلًا: نعم.

– حسنًا، كنتُ أسألك عما تريد، وهل يمكنني مساعدتك؟

– أريد الذهابَ إلى المنزل.

تبادل النظرات مع الشاويش، وقال: نعم، نعم، وأين المنزل؟

لم أستطع أن أفهم السبب في أن ذلك الضابط كان يتحدث من أنفه، مما جعلَني أفهمه بصعوبة، وكنتُ فقط أخمِّن ما يقول.

قلتُ له: أنا أعيش في «آكية».

ثم أضفتُ: تُوجد في «آكية» كنيسةٌ كبيرة خارج الأسوار.

قال ولم يزل يتحدث من أنفه: آه، آه، بالقرب من الكنيسة، نعم، وما اسمك إذن؟

كانت الطريقة التي نطق بها سؤاله عن اسمي أكثر غموضًا، لكنني استطعتُ أن أفهم السؤال.

وأجبتُ: اسمي «وول»

– «وونلي» «هكذا نطق اسمي»، حسنًا، وما اسم والدك؟

– الناظر.

– ماذا؟

– الناظر، هذا هو اسم أبي، وأحيانًا يكون اسمه إسحاق.

ظل يضحك، ولم أعرف سببًا واحدًا في اسم أبي يبعث على ذلك الضحك، أما الشاويش فقد خرجَت عيناه تقريبًا من رأسه، واكتسى وجهُه بملامح غريبة تختلف تمامًا عن الرجال الذين نقابلهم في «آكية»، وعندما تكلَّم كان صوته يشبه التجار الذين يُحضِرون البضائع إلى منزلنا ويُبادلونها بالملابس القديمة، كانوا ذوي أشكالٍ نحاسية، كانت الجياد والإبل والأطباق والصواني والسلاطين وأيضًا الزخارف والحلي، كانت الحقائب والشباشب التي يحملونها تملأ المنزل برائحة الجلد الطازج، والشيء الذي لم أستطع نسيانه قط هو تلك الزجاجات من العطر ذات الأسماء الأجنبية، وبعض زجاجاتٍ أخرى كانوا يلصقون عليها ورقةً مكتوبًا عليها: «السودان»، وتحتها صورةٌ لمحارب يرتدي عمامة، وإلى جواره جملٌ راكع وفتاةٌ عذراء تقدِّم له باقةً من الزهور.

لم يكن في بستان الفاكهة ما يشبه تلك الزهور، فقال إسحاق: إنهم يدعونها بلحًا (dates) لم أصدِّق إسحاق لأنني أعرف أن dates الأشكال والأرقام التي نراها فوق نتيجة الحائط، فاعتبرتُ ذلك مزاحًا منه.

كانت أصواتُ التجار جميعًا متشابهة وهم يُنادون على بضائعهم، وهكذا كان صوتُ الشاويش الذي سألَني: هل أنت ابن ناظر «آكية»؟ وماذا تفعل هنا إذن؟

ظل الشاويش والضابط الأبيض ينظران نحوي، ولم أجد إجابةً على السؤال حتى سألني الرجل الأبيض: هل أنت تائه؟

قلتُ: كنتُ أسير خلف الفرقة الموسيقية.

أومأ الضابط برأسه، وقال للشاويش أن يأتي بدرَّاجته، قدَّم الشاويش التحية ومضى، لكنَّ شيئًا ما كان يدور بذهن الضابط، الذي وضع يدَيه فوق كتفي وقادني إلى المكتب.

كم عمرك؟

– أربع سنوات ونصف.

صاح مندهشًا: ماذا؟

ثم صمت لحظة، وعاود النظر إلى وجهي قائلًا: هل أنتَ متأكد؟

هزَزتُ رأسي بالإيجاب.

اقترب مني أكثر وقال: نعم، طبعًا، طبعًا وقد مشيتَ، من «آكية»، من أي نقطةٍ بدأت؟

قلتُ: من النصب التذكاري، وكان معي أطفالٌ آخرون، لكنهم تركوني.

عند وصولنا إلى المكتب رفعَني بيدَيه، ووضعَني فوق الكرسي، وسألني: هل أنت عطشان؟ ثم تناول زجاجةً من عصير البرتقال، ووضَع عليها بعض الماء الموجود فوق الطاولة، فشربتُ حتى آخر قطرة.

سألني مرة أخرى: هل تريد كوبًا آخر؟

وقبل أن أجيبَ كان قد صنَع كوبًا آخر من عصير البرتقال بالماء، وناولَني إياه، فسارعتُ بشرابه كاملًا، كما فعلتُ مع الكوب الأول، شعرتُ بتحسنٍ شديد، ورحتُ لأول مرة أتجوَّل بنظراتي في المكتب، مدَدتُ قدمي وأثارت دهشتي تلك الأوراق فوق المكتب، وكنتُ أعرف هذه الجريدة التي كانت تأتي لأبي كل أسبوع.

نظرتُ إلى الرجل باهتمامٍ كبير، وقلتُ له: أنت تقرأ جريدة أبي.

قال بفزع: أية جريدة؟

أشرتُ إليها قائلًا: هذه، هل تقرؤها في وقت الفراغ؟

– حقًّا، هل قلتَ إنها جريدةُ أبيك؟

– نعم، إنه يملك واحدةً جديدةً كل أسبوع.

فتح الجريدة بسرعة ونظر إلى شيءٍ ما بين الصفحات، وقال: هل تعني أن أباك هو رئيس التحرير؟

لم أستطع أن أفهم فكرَّرتُ: إنه يحصُل عليها كل أسبوع.

وعندئذٍ كشَّر الرجل بوجهه، وأومأ برأسه: أعرف، أعرف.

كان النعاس يغالبني حين جاء الشاويش بدرَّاجته، وعند مفترق الطرق في طريق عودتي إلى المنزل أحسستُ بالشجاعة، استلقيتُ فوق سرير أمي بحجرة النوم؛ حيث تنتشر رائحة ori[٢] والكافور، ولم أعُد أتذكَّر أيَّ شيء.

– استيقظتُ بعد قليل، وعرفتُ أين أكون، وشعرتُ أن معدتي تتلوَّى من الجوع، فقفزتُ من السرير إلى المطبخ، وعندما فتحتُ الباب فوجئتُ بكثيرٍ من الناس، وكانت الحجرة الداخلية الأمامية مزدحمةً بالكبار الذين يتبادلون الحديث باهتمام، توقَّفوا فجأة وساد السكون عندما دخلتُ، ثم تطلَّعوا جميعًا نحوي، وسألتُ نفسي: ماذا يحدث؟ لماذا كل أولئك الناس؟

وفي ظل ذلك السكون قلتُ: إنني جائع.

كان كل ما يدور في ذهني أنني جائع، ذلك كل ما في الأمر.

أصابتهم الدهشة، وفتحوا أفواههم عن آخرها، ثم أعلنَت زوجة بائع الكتب وهي تضرب قبضتَها بالأخرى في دهشة: هل تسمعون؟ إنه جائع!

تبادلوا اللغو والهمهمات، ولم أفهم السبب في أن جوعي يبعثُ على كل ذلك الاهتمام والإثارة.

كان الوقت مساءً ولم أكن قد تذوَّقتُ الطعام منذ الصباح.

قال أبي مبتسمًا: حسنًا، إنه لمن الطبيعي أن يكون جائعًا بعد أن مشى من «آكية» إلى «إيبارا»، أليس كذلك يا «وول»؟

ارتميتُ بين أحضان زوجة بائع الكتب التي صاحت في وجه أمي: أحضري الطعام لطفلي، أوه، ماما لماذا تتركينه جائعًا؟ قالوا لكِ بأنه جائع ولم تقفزي على الفور لتأتيه بالطعام، سوف يأتي معي إلى منزلنا وأقدِّم له الطعام.

قبل أن أفهم ما يحدث رفعَتْني إلى ظهرها وهي تتناول عباءتها، ثم راحت تُغنِّي وترقص، وفجأة أصبحوا جميعًا يغنُّون معها بأعلى أصواتهم.

---

[٢] ori: رائحة الزبدة. (المترجم)

كانوا يغنُّون ويضحكون، لكنَّ شخصًا واحدًا كان يجلس فوق مقعده دون أن يتحرك أو يُغنِّي، إنها أمي التي كانت جالسة وذقنها فوق قبضة يدها، دون أن تفعل شيئًا سوى التحديق في وجهي وهي تهزُّ رأسها من وقتٍ لآخر متنهِّدة.

قالت زوجة بائع الكتب لأبي: انظر لها، كانت تتمنَّى لو التهمَتْه حيوانات «أبيكوتا» المفترسة، هاآآم، أعطِني العصا من فضلك.

ضحك أبي وقال: فكرةٌ طيبة.

تناول العصا من مكانها بجوار مقعده في الركن، وأعطاها لزوجة بائع الكتب، فسارعَت أمي بالجري في الردهة.

كانوا جميعًا يتمتعون بروحٍ عالية، وكان غريبًا بالنسبة لي أن أرى الرجال والنساء يقفزون ويمرحون في المنزل مثل الصبية الصغار.

من فوق ظهر زوجة بائع الكتب شعرتُ مرةً ثانيةً بالنوم، فلم أعرف متى سأتناول طعامي.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي من فوق سريرها مبتهجًا لا أعاني أية متاعب، وجلسنا إلى مائة الإفطار الكبيرة، وأبدًا لم أستطع أن أتذكَّر شيئًا مما حدث بالأمس، ربما كان حُلمًا لكنه كان مختلفًا عما حدث لي من قبلُ.

٤

جاهدتُ في اختطاف الإسفنجة من يد «نوبي»، التي كانت تُعاوِد رشَّ الماء فوق جسدي، وتدلكني باللوف الخشن والصابون، قاومتُها في البداية، ودفعتُ يدها بعيدًا عني مرةً إثر أخرى، ورغم محاولاتي الجادة في إبعادها عني إلا أنها لم تفعل، وظلت ترشُّ الماء.

قلت لنفسي: آه، لو أنها جوزيف!

كانت عيناي غارقتَين بالصابون، فقمتُ بإزالته من فوق عينٍ واحدة أبصرتُ بها «نوبي» واقفة ورائي تنظر نحوي باستياء وتقول: هل ستساعدني في تنظيفك أم لا؟

قلتُ: ولكن دعيني أغسل وجهي بنفسي.

ضحكَت بسخرية وقالت: أنت، ها، نعم، فلتضع يدك إذن فوق رأسك.

فعلتُ ما طلبَت مني؛ فقد كان واضحًا أنه نوع من الاختبار إذا ما نجحتُ فيه فسوف تتركني أغسل وجهي.

وضعتُ ذراعي فوق قمة رأسي محاولًا قَدْر استطاعتي أن أفعل مثلها، كانت أصابعها تداعب حلمة أذنها اليسرى ثم أخفت الأذن تمامًا بقبضة يدها وقالت: والآن هل ترى الفَرق؟

وهل لا أفعل مثلما تفعلين؟

ضحكَت بسخرية أكثر: ألا تلاحظ أي فَرق؟

– ما الخطأ فيما أفعل؟

– أنا لا أتحدث عن الخطأ الذي تفعله وإنما عن الذي لا تفعله أبدًا، انظر إلى يدي، إنها تصل إلى رأسي وتغطي هذه الأذن بكاملها، هل ترى؟ والآن انظر إلى يدك التي لا تصل إلى قمة رأسك، هذا الفرق ضروريٌّ لمساعدتك في حمامك أم أنك تعتقد بأنك صرتَ ولدًا كبيرًا؛ لأنهم سمحوا لك بالذهاب إلى المدرسة؟ هنا في المنزل ما زال الكثير لتتعلمه؛ إذ إن المدرسة لا تستطيع أن تعلمك كل شيء.

تقدَّمَتْني وهي تمسك بالإسفنجة في يدها وتقول: والآن، تعالَ.

ناديتُ على جوزيف بصوتٍ عالٍ وقلتُ بإصرار: جوزيف، دعني أغسل وجهي.

قالت: أخبرتني ماما أن أقوم أنا بحمَّامك، هذا كل ما أعرفه.

وضعَت الكوز بيدها اليسرى في الدلو، ثم جرفَت الماء واتجهَت ناحية رأسي، وظِلْتُ أنحرف برأسي بعيدًا عن الماء.

– انظر إلى ما تفعل، أنت تُبدِّد الماء، هل تعرف ما ستفعله ماما إذا قلتُ لها؟

تحرَّكتُ نحو ركن الحمَّام، وأدركتُ بعد فوات الأوان بأنني واقع في مصيدة، ورحتُ أجاهد من أجل حياتي، كان الكوز بما يحتوي من الماء يطارد رأسي، وحاولتُ إبعاده عني وأنا أتصارع مع «نوبي»، فابتلَّت بالماء مما أثار غضبها، فقالت: أترى ما فعلْتَ؟ إن الرطوبة ستُصيبني وتكون سببًا في إصابتي بالبرد.

أمسكتُ برأسي بقوة وهي تدلك وجهي، ولم أستطع هذه المرة أن أتخلص منها، وعندما حاولتُ أن أعضَّها وضعَت الإسفنجة في فمي، وعندئذٍ كرَّرتُ محاولاتي اليائسة، ولم أجد بديلًا عن ضربها برأسي في معدتها.

سمعتُها تصرخ: O pa mi o[1]

ثم سمعتُ صرخاتٍ أخرى: Tani yen?[2]

ظل الجميع يجري في المنزل في حالةٍ من الفزع مردِّدين: من هو القاتل؟

مسحتُ بيدي الصابون بسرعة، وكانت ماما هي أول ما رأيت، كانت تجرى عبْر الباب المفتوح، وتهزُّ رأسها من جانب إلى آخر في حَيرةٍ معتادة، لكنها كانت أكثر ارتباكًا.

قلتُ لها خائفًا: لقد انتهيتُ من حمامي.

– ضربَتْني برأسها، لكن «نوبي» تشكو منك؛ لأنك ضربتَها برأسك في معدتها، وكفاك كذبًا.

– نعم يا ماما، لكنَّ شيئًا لم يحدث لها، وقامت على الفور.

– وذلك الصُّراخ الذي انتشر في أرجاء المنزل، ماذا تريد أيها الولد، هل ترغب في إثارة الرعب والفزع لدى الجميع؟

---

[1] O pa mi o: القاتل.

[2] Tani yen?: مَن يكون؟

قالت «نوبي»: لا، ماما، إنه فقط لم يتركني أنظِّف وجهه.

قلتُ بنبرة تحدٍّ: بل قُمتِ بتنظيفه، ولم تفعلي شيئًا سوى ذلك.

كانت «تيني» ما تزال في انتظار حمَّامها حين بدت على وجه أمي، تلك المسيحية المتوحشة، ابتسامةٌ رقيقة جعلَتني أشعر بالطمأنينة.

قالت لنوبي: حسنًا، استدعي «تيني»، وعلى أية حال فإنهما سيكبران عما قريب، ولن يحتاجا لأي مساعدة في الحمَّام.

انتهزتُ الفرصة قائلًا: نعم، نعم، لستُ في حاجة لمساعدتها أو مساعدة جوزيف.

– ولكن يجب أن تستحم أمامهم حتى يتأكدوا من أنك تفعل الصواب.

أومأتُ برأسي: إنه شيءٌ بسيط للغاية، وأستطيع بمفردي دون مساعدة أو وجود أحد.

ثم أضفتُ: أنا حقًّا لا أحتاج لأحد؛ فذات مرة قمتُ بتدليك جسدي حين كان جوزيف مشغولًا، وعندما شاهدني بعد ذلك قال بأنني نظيفٌ جدًّا.

استطردَت ماما: أوه، جميل، لكنني لا أفهم خوفك هذا من الماء وأنت الذي وُلِدتَ في يوليو.

قلتُ معترضًا: كنتُ أُزيلُ بقية الصابون، ولم أكن خائفًا من الماء.

– لا، ليس كما تزعم، إن الصابون ما زال عالقًا في أجزاءٍ كثيرة من وجهك، ولم يلمسه الماء بعدُ.

ملأتُ الكوز بالماء، وبسرعة رحتُ أصب الماء فوق رأسي، وكنتُ أقاوم لسعة الماء في وجهي، وأتنفس بصعوبة.

قالت أمي لأبي في جلسة الإفطار: أنا لا أعرف ماذا يفعل ابنُكَ هذا بالماء، إنه لا يُحسِن استخدام الماء، هل تعرف ما حدث هذا الصباح؟

كانوا عادةً يتحدثون وكأنني غير موجود، وكانت هذه إحدى عاداتهم الغريبة، وهكذا كان كل الكبار الذين يتناقشون وكأن الصغار غير موجودين.

وكنتُ أهزُّ رأسي مستنكرًا؛ فقد كانوا يفتقدون ما نُحس به نحن الصغار.

قال إسحاق وقد لاحظني: أوه، إن «وول» يهزُّ رأسه.

ضحكَت أمي وقالت: هل تُنكِر ما حدث حين كنتَ تصبُّ الماء بنفسك فوق رأسك؟

– لا، ولكنني لا أخاف الماء؛ لأنني أحب الخروج أثناء المطر.

قذفتُ بملعقتي في الإناء فتناثر الطعام، وقالت أمي تحذِّرني: انتبه أيها السيد المحامي، لا تبدِّد طعامك.

– لن أكون محاميًا، سوف أتزوج الآنسة «أدوفوا»، وسوف أصبح قسًّا.

– أوه، الأنسة «أدوفوا»، ماذا حدث للعمة «بوزير»؟

شرحتُ قائلًا: لم تأتِ لزيارتنا، وكانت الآنسة «أدوفوا» تقضي وقت فراغها معنا، إنها لطيفةٌ جدًّا.

كان إسحاق يتأمل ويفكِّر ثم قال: نعم، قد لا تخاف المطر، لكن ذلك لا يعني أنك لا تخاف الماء.

كانت أمي تُلاحقنا بنظراتها وهي تُعِد نفسها للذهاب إلى الدكان حين قالت: أوه؛ فقد كانت تعرف أن الجدل سيستمر وقتًا طويلًا، ومن الأفضل لها أن تغادر.

قلتُ لأبي مستفسرًا: أليس المطر هو الماء؟

– إن المطر يعني الماء لكن الماء لا يعني بالضرورة المطر.

أومأَت أمي برأسها في وقارٍ ممتزج بالدهشة، ثم تناولتَ الشنطة من حجرة نومها.

قلتُ بإصرار: لكن الأمطار لا يمكن أن تكون بغير مياه.

أومأ أبي برأسه: حقًّا، ولكن يمكن أن يُوجَد الماء بدون أمطار.

– كان الماء في البدء يأتي من الأمطار، أليس كذلك؟

– آه، أنتَ مخطئ، إن الماء هو الذي يُسبِّب الأمطار.

وعندئذٍ تذكَّرتُ الكتاب المقدَّس، ماذا يقول الكتاب المقدَّس؟ أَلَمْ يخلق الله كلَيهما منفصلًا عن الآخر؟

قال إسحاق: وهو كذلك، دعنا نرى، اذهَب وأَحضِر الكتابَ المقدَّس من الصالة.

تسلَّقتُ الكرسي، وكنتُ شغوفًا لمعرفة ما يقوله الكتاب؛ فقد كان الجزء الذي تعلمناه في سفر التكوين، وكنا نحفظه عن ظهر قلب، لا يشتمل على ما يُفيدنا في هذا الموضوع.

عُدتُ إلى حجرة الطعام ومعي الكتاب الذي ناولتُه لأبي، ثم رجعتُ إلى المائدة، وجلستُ إلى جواره فوق مقعد أمي، كان طعامي قد نفد، وأبصرتُ طبقًا آخر ما زال يحتوي على الطعام.

ابتسم أبي دافعًا الطبق ناحيتي وقال: ستجد أن الكتاب المقدس يتحدث عن جزءٍ واحدٍ من القصة فقط، خلق الله الماء والأمطار، وجعلهما بطرقٍ خاصة يتفاعلان أحدهما مع الآخر، وهذا ما ندعوه بقوانين الطبيعة.

كان ذلك الكلام تعقيدًا للأمر لا مبرر له، فرحتُ أمتص الهواء من شفتي كما لو أنني أقضمه مثل ataro do[٣] الأخضر الطازج، وفجأة تذكَّرتُ وقلت: وإذن، فلماذا تقوم المدينة كلها بالصلاة عند سقوط المطر؟ أفلا يعني ذلك أن الله يخلق الأمطار وقتما يحب؟

تأملَني إسحاق في هدوء وقال: تذكَّر بأن الله بعد أن يخلق الأشياء على الأرض، ويُحدِّد قوانين العمل الخاصة بها، يستطيع كخالق أن يتدخل ويُعيد ترتيب الأمور، كما أنه يستطيع في الحال الإسراع بعمليات الخَلْق أو الإبطاء فيها.

خرجَت المسيحية المتوحشة من حجرة نومها حاملة الحقيبة لتُودِّعنا وتذهب إلى الدكان، وكانت قد سمعَت ما قاله إسحاق، ثم اقتربَت وهي تهزُّ رأسها وتتعجَّب كعادتها دائمًا لقدرة إسحاق على الصبر غير المحدود. وقالت له: ولكن يا عزيزي هل أنت متأكدٌ بأنه قادرٌ على فهم كل هذا الجدل الذي تُثقِل به عقله الصغير؟

بدا لي أن المناقشة ستكون أكثر إثارةً بعد مغادرة أمي، ولم أكن أعرف أن مناقشة مثل هذه الأمور تبعث اليقظة في نفس إسحاق، وتجعل لسانه يرقص.

سحبَتْني أمي من فوق الكرسي وقالت: احمل هذه.

أعطتني حقيبة، وأدركتُ على الفور ما تعني، إنه يوم السبت؛ حيث إجازة المدرسة، وهذا يعني أن أشارك بالعمل في الدكان.

قلتُ باحتجاج: عندي واجبٌ لا بد أن أنتهي منه.

قالت وكأنها لم تسمعني: هاتِ الواجبَ معك إلى الدكان.

وضعتُ الحقيبة على الأرض، واختفيتُ بين كتبي، فقالت لأبي: لا يجب أن تشجِّعه كثيرًا يا عزيزي، إنه مشاكسٌ عنيد، أتعرف ما قاله لخادم الكنيسة يوم الأحد الماضي أثناء صلاة ما بعد الظهر؟ كان يثرثر مع صديقه الجديد ابن «إيدون» وعندئذٍ زجرهما خادم الكنيسة، هل تعرف بماذا أجاب ابنُك؟

– ماذا قال؟

– كانت الكنيسة كعادتها في أيام الآحاد مزدحمة وكانوا يُنشِدون التراتيل ويؤدون الصلاة حين أجاب ابنك أمام الجميع بأنه لم يكُن يتكلم أو يثرثر وأن على الخادم إثبات ذلك، هل تتخيل؟ على خادم الكنيسة أن يثبت ذلك! هذا هو ابنك، أي نوعٍ من الأطفال يكون هذا الولد؟

---

[٣] ataro do: فلفل رومي طازج. (المترجم)

توقفتُ خلف الباب مرتعشًا، اهتم إسحاق بأمر المتاعب التي أسبِّبها في الكنسية أو مدرسة الأحد، وقال للمسيحية المتوحشة بأنه كان — أجلًا أو عاجلًا — سيعرف.

ظلِلْتُ بلا حراكٍ مثبتًا عيني في فتحة الباب وأنا أستمع، كان يقول: حسنًا، آه، إنه لشيءٌ صعبٌ أن يقوم خادم الكنيسة بإثبات ذلك.

تنهدَت أمي: أعرف، أعرف، أنت دائمًا تدافع عنه عندما نتحدث بشأنه، ولستُ أعرف لماذا أضايق نفسي بالقول لك، ها هو قد اختفى من أمامك، أين هو؟ وهل أخذ الحقيبة معه؟

– ها هي فوق مقعدك.

دفعَت بالخادمة أمامها وقالت: دعينا نذهب، سوف أتركه ليضايقك بأسئلته الصعبة؛ فهو أيضًا يضايقني في الدكان بأسئلته الحمقاء، مثل: لماذا بطنك أكبر من بطن بابا؟ هل أنت حبلى؟ وأشياء أخرى لا أخبرك بها.

ضحك أبي ملء فمه: حقًّا، متى كان ذلك؟

– اسأله هو، إنه ابنك، دعني أذهب؛ فالزبائن في انتظاري.

دفعَت الخادمة بقوة، وخرجَت من المنزل بينما بقيتُ في مكاني فلم تكن ضحكات إسحاق تعني عدم توبيخي، ظل فوق مقعده، ومن شرخٍ صغير بالباب كنتُ أرى جزءًا صغيرًا من ظهره، كان يسترق السمع لخطواتي وهو جالس في مكانه ممسكًا بفرشاة الأسنان، تسمَّرتُ في الأرض، وكنتُ أتنفَّس بصعوبة، وأتوجَّه بدعائي إلى الله، وكان قدوم أي شخصٍ لزيارتنا هو الشيء الوحيد الذي يُنقِذني.

أصابني السُّعال، فأعلنتُ عن وجودي، وقال أبي: «وول»!

– نعم سيدي.

وفي نفس اللحظة سمعتُ أصواتًا ثقيلةً بالخارج فوق الرصيف، كان صوت أمي مع صوت آخر.

دخلَت أمي وقالت لأبي: أما زلتَ بالمنزل يا عزيزي؟

– نعم، ما زلتُ هنا.

نظرَت إلى الخارج وقالت: ادخل، ادخل، تفضَّل بالجلوس، سوف أستدعيه للقائك. كنتُ أضغط نفسي خلف الباب، وكان حضورُ شخصٍ ما هو ما صلَّيتُ من أجله، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها أن الله له عادةٌ غريبة في ألَّا يستجيبَ لصلوات الإنسان أبدًا، أو يستجيب لها بطريقةٍ غير مباشرة، يا له من إلَهٍ طيب!

قالت أمي: قابلتُ السيد «أديزينا» بالطريق، وسألَني عن إمكانية أن يلقاك هذا المساء، فرأيتُ أنه من الأفضل أن يقابلك الآن، هل هذا حسن؟

أجاب أبي: هل جاء بخصوص الوظيفة مع «ساينود»؟

– وهل هناك شيءٌ آخر يفكِّر فيه؟ إنه يأتي إلى الدكان ويُزعجني فأقول له أن يلقاك، هل أجعله يدخل؟

– لماذا أحضَرتِه؟

– أنا لم أتوسل إليه، كما أنه لم يشأ أن يأخذ نقودًا، أخبِره أنتَ يا عزيزي؛ فلقد قلتُ له مئات المرات لكنه لم يقتنع، أخبِره أنتَ بنفسك.

توجَّهوا نحو الحجرة الأمامية، وفي غفلةٍ منهم تسلَّلتُ إلى حجرة الطعام، وتوقفتُ أمام طبق إسحاق، ثم ضربتُ كِسْرة الخبز فيه، ووضعتُها في فمي، واتجهتُ إلى حوض الغسيل الواقع على يسار الحائط في مواجهة حجرة الطعام لأمسح شفتي، وفجأة تلقَّيتُ ضربةً قوية في جانب رأسي وصوتٌ يقول: رائع، شيءٌ رائع.

كانت تقف فوقي متأجِّجة حين استطردَت: كنا نعتقد أنكَ تخلَّيتَ عن هذه العادة.

كانت المسيحية المتوحشة تملكُ موهبةً عظيمةً في الظهور من حيث لا تدري، وكأنها كانت تجيء من تحت الأرض.

كان «أديزينا» قد فقَد وظيفتَه مع «ساينود»، وعرفتُ أنه لن يعود، غادر المنزل مثل كثيرين قبله باكيًا ومتأثرًا، وكانت عيناه وهو ينظر إلى أمي تلتمسان الرجاء الأخير.

قالت للرجل: أنت تعرفُ طبعًا أنه قرار الناظر، ولا أستطيع أن أجعله يتصرف بما يتنافَى مع ضميره.

٥

تساقطَت أوراق شجرة «الباوباب» التي كنتُ أظنُّها حصنًا أزليًّا مع مرور الوقت، ولم يبقَ منها سوى بعض الفروع القليلة التي كانت تنشر ظلالها المتفرقة، لكن المسافة بين المنزل والكنيسة كانت ما تزال مفروشةً بأشجار المانجو، وكانت شجرة «الأوميجي» في فِناء الكنيسة والنصب التذكاري خارج أسوار الكنيسة ما زالا قائمَين.

كان برج الكنيسة بأسطحه الصدئة من كل الجوانب موازيًا للطريق المنحدر باتجاه «أبيريكودو» ثم «آكية»، «إيبارابا»، «أتوكو»، وأخيرًا عبْر التل إلى «موكولا»

قبل «أبيريكودو» كان ميدان «هوزا»، وكانت خلية النحل بأعشاشها ذات اللون البني تحيط المنازل، وبالسير نحو الحائط والبوابات الواسعة لإصطبل الرئيس وقبل قمة الطريق كانت أسواق «إيبارابا» المتشابهة تبدو مختفيةً في جانب التل.

إن شيئًا من ذلك لم يتغيَّر.

كانت شجرة «الباوباب» والمنازل المضيئة، وفِناء اللعب، والطُّرق والممرَّات، وحتى «جونا»، هي أكثر الأشياء التي نتعامل معها ونُحبها، كان المدرس ينظر متأملًا عبْر شُباك مدرسة الأحد ليرى تلك الصخور المتسلِّقة القريبة، وبعيدًا عن أنظارنا في الجانب الآخر من مبنى المدرسة كانت الصخرة الكبيرة التي ندوسُ عليها بأقدامنا وكأنها تفرش الأرض وتُغطِّيها.

قال أحد الصغار في حجرة المدرسة: إن الحوت أكبر من الصخرة.

أومأ آخر برأسه موافقًا: نعم، إن الحيتان هائلة وضخمة، وهي أكبر من المنازل.

– وحتى أكبر من السفن.

– وأكبر من الطائرات.

امتدَّت يد أحدهم نحوي بقطعة من الورق فقرأتُ: إن منزل أبي أكبر من الحوت.

لم أهتم به، لكنني أجبتُ: كذاب.

ولم أسمع إجابته؛ فقد شعَر بصدمةٍ كافية.

لكن «جونا» كانت صخرتي الخاصة التي يتحدَّثون عنها في مدرسة الأحد، كانت الأستاذة تتباهى ببعض الأفكار الخاطئة عن الصخرة «جونا»، التي أُحبُّها كثيرًا، وتربطني بها علاقةٌ سرية خاصة، أبصرتُ تعبيرًا غامضًا فوق وجه الخادمة في منزلنا حين ربطَت الأستاذة بين «جونا» والكتاب المقدس.

كانت الحكايات حول «جونا» غامضة ومعقَّدة مثل حكايات الكتاب المقدس واختلاط الطين بالجسد العظيم باستخدام مياه المطر التي تتجمع في شكل كراتٍ بيضاويةٍ كثيرة، حتى إنني تساءلتُ ذات مرة: مَن الذي يصنع كل هذا؟

لم تكُن تلك الكرات البيضاوية الكثيرة تلامس «جونا»، الجميلة، التي لم تكن هي الصخرة الوحيدة في الإرسالية، كانت ثمَّة صخورٌ أخرى تنمو فوقها أشجار البامبو، وكنتُ أسير من المدرسة إلى منزلنا متسلقًا جوانبها المنحدرة، كانت صخورًا ناعمة ومائلة إلى أسفل نتزحلق من فوقها ونصرخ، لكن «جونا» كانت مكشوفةً وعاريةً من الأشجار، كانت «جونا» حالةً خاصة ومتفردة.

قالت الأستاذة: كانت «جونا» في بطن الحوت.

لكنني لم أصدِّق، كان ذلك القول من نسج الخيال.

بجوار صنبور المياه كانت شجرة الجوافة المطلة على مربعٍ متمددة فوق الأرض كأنها تجلس القرفصاء ليس ببعيدٍ عن مدرسة الأطفال، كانت تجود بكثيرٍ من ثمارها، وكان لونها أخضر داكنًا وأوراقها ممتلئة ويتدلى أحد فروعها نحو الأرض، كانت تزدهر في موسم المطر فقط، وعند انتشار السحب الكثيفة كانت تُعلن عن وجودها بين عالم النبات والشجر بإنتاجها الوفير، كما كانت الرطوبة تملؤها بالحياة، ولم تكن العصافير تشعر بالأمان مثلما تشعر به فوقها.

ذات صباح ساد فيه الفسق تسلَّلتُ خارج المنزل كي أراقب «جوزيف» أو «نوبي» وهما يسيران بمحاذاة الأحجار التي تحدِّد الطريق، ولم أكُن بقادر على رؤية ما بين الفروع.

تم تعميد «نوبي» مثل الآخرين غير المسيحيين الذين جاءوا إلى الإرسالية، فأصبحنا نُناديها باسمها المسيحي «ماري»، كانت تمشي في الطريق الواسع في اتجاه الفسقية؛ حيث تعرف المكان الذي نلعب فيه ونضرب الحصى فوق الطين أو نتطلع إلى البط، كانت تسير وهي تمسح جبينها بطرف لفافتها وتنادي على اسمي، تعثرتُ طوال الطريق محاولًا اللحاق بها.

نظرَت نحوي باهتمام وقالت: إن ماما سوف تجلدك؛ فقد توقفَت الأمطار منذ ساعتَين، وكنا نعتقد أنك موجود بالمنزل.

– لكنني أخبرتُ «جوزيف» بأنني ذاهب إلى المدرسة.

– نعم، لقد قال لها ذلك لكنك تأخرتَ في العودة، فظلت ماما واقفةً في الركن خائفةً من إصابتك بالحمى.

كان مجرد التفكير في سوط أمي يصيبني بالارتعاش.

كان «إيزارا» هو منزلنا الثاني؛ حيث وُلِد إسحاق، الذي جاء أيضًا من أبٍ وأم، كان المنزل ذا عوارضَ خشبية محترقة وسقفٍ مكشوف وسجاد من الوبر وحصير، وثمَّة أشياء في أركان السقف ملفوفة بأوراق من الجلد، ولم يكن من شيء يبعث على الحَيرة والارتباك سوى تلك الحبوب والنشوق التي يتعاطَونها للتأثير على مشاعرهم.

كان «إيزارا» نوعًا مختلفًا من البيوت التي يظهر فيها الزمن من كل أركانه، وتعود معه خطواتٍ كثيرةً إلى الماضي، كل ما تقع عليه العين كان يساعد في معرفة الأجداد، بما في ذلك الصور المعلَّقة، وذلك الوشم الأخضر فوق أيادي وأجساد النساء.

كنا نذهب إلى هناك كل عامٍ جديدٍ لنشوي الخنزير ونستمتع برائحة الدخان المنبعث من الخشب المحترق والتراب الأحمر، كان السقف من القش، وكنا نشرب الخمر المعتَّقة من البلح، ونتناول طعامًا شهيًّا، وكان أبي يدخن من عوارض الخشب كنوعٍ من إزالة النحس، وكانت النساء تتدثَّر بشالاتٍ سوداء ذات أشكالٍ مختلفة.

كان النمل ينخر الخشب، وفجأة سقط السقف فوق رءوسنا، لكنَّ أحدًا لم يكن يهتم بذلك النمل المنتشر في المكان، كان الصندوق تحت السرير مهجورًا، وكانت الأوراق بداخله متأكلة من النمل الذي كان يختبئ في شقوق السقف والأركان، كان أبي في زياراته الليلية يعمل على إصلاح السقف قَدْر استطاعته، ويتذمَّر من زيارتنا في العام الجديد، ثم يقوم بإخفاء صناديقه الغامضة حتى انتهاء الزيارة، كنتُ أُحسُّ بغيظٍ شديد لأنني لم أتمكَّن من معرفة ما تحتويه تلك الصناديق، لكنني استطعتُ أن أصنع بها ثقوبًا.

كان إسحاق في جولات الصيد مثل «جونا» وشجرة الجوافة وأجراس المنزل ذا شخصيةٍ مختلفة يحمل بندقيته دون أن يتحدث أبدًا، وأنا أسير خلفه متتبعًا إياه وهو يلتقط الطيور التي أطلق النار عليها، وكالعادة لم يكن الأمر يخلو من مضايقاتي وأسئلتي الكثيرة.

سمعتُه ذات يوم ينادي: «وول».

لكنني قررتُ ألا أذهب معه للصيد، إنه يصيبني بالتوتر وأنا أقتفي أثره، هُرِعتُ إلى الخارج قبل أن يبدأ النداء مرةً ثانية، وما هي إلا لحظاتٌ قليلة حتى كنتُ راقدًا فوق «جونا» وأنا ألهث ناظرًا إلى الطريق الذي سيمضي منه في طريقه للصيد.

قالت أمي لإسحاق: ابنك هذا، هذا الولد لا يتوقف عن فعل الأشياء التي تؤدي إلى موته.

كان ذلك هو اعتقاد أمي الراسخ وأحد أحلام اليقظة والأفكار السوداء التي تنتابها، وكانت تنتهز كل فرصة لتخبر إسحاق بوضع حدٍّ لسخافاتي.

سمعتُها تقول له: أخبرتُك من قبلُ ولن أكرِّر ما قلتُ.

عرفتُ القلق؛ فقد كان يبدو أن المسيحية المتوحشة على صواب، وكان حادث شجرة الورد الصغيرة هو ما جعلني أهتم بشكاواها إلى أبي.

كانوا جميعًا يساعدونها وهي تُعِد الطعام بإحضار الملاعق والفناجين، وإذا ما نضج ما في الإناء فإن فريقًا منهم كان يقدِّم لها المغرفة للتقليب، وحين لا يجدون شيئًا يكلفونني به كنتُ أهرب للقراءة في الحجرة الأمامية أو للقيام بواجباتي، كانت مشاركتي في واجبات المنزل قليلة بالنسبة لما تقوم به «تيني» أو أولاد العم الذين يقيمون معنا.

كانت مشاركتي الخاصة التي اخترتُها بنفسي هي الاعتناء بحديقة إسحاق؛ فكنتُ أرش النبات بالماء، وأشذِّب الفروع الميِّتة، وأزيل العنكبوت المتراكم فوق الأنسجة، مع الاعتناء بالزهور حتى تصبح في أحسن أشكالها، غير أنني كنتُ قاسيًا مع المواعز التي كانت تنجح كثيرًا في اختراق الزهور، كنتُ أغلق البوابة في وجوه المواعز، وألقي عليها الأحجار والهراوات، حتى إنني ضربتُ إحداها ذات مرة بشدة، فرقدَت على الأرض لاهثة وهي تنزف في الطريق الضيق المؤدي إلى البوابة؛ فقد كان الحجر أكبر كثيرًا من الذي نستخدمه دائمًا.

كانوا جميعًا يغارون من عملي في الحديقة، باستثناء أبي الذي تجاوز تلك الغَيرة.

ذهب المدرس «أوديجيمي» يومًا ما إلى المدرسة واضعًا وردةً قرنفليةً في فتحة سُترته، فتعجَّب أبي لتلك الوردة، ثم سأله بطريقة عادية عن كيفية حصوله عليها.

قال المدرس: أوه، من حديقتك بالطبع أيها الناظر.

قال إسحاق دون أن يغيِّر من لهجته: آه، أعتقد أنني أعرفها، أنت تحب الزهور كما أرى.

– نعم، أنا أحب الزهور يا سيدي، ويجب أن أتقدَّم لك بالشكر، أنت تملك حديقةً رائعة لم أر مثلها من قبل.

– وكيف عرفتَ أنني أملك حديقة؟

– كنتُ مارًّا بالطريق يا سيدي وكانت البوابة الخلفية مفتوحة، فرأيتُ الزهور الجميلة ولم أصدِّق عيني.

كنتُ أنا الذي تركت البوابة الخلفية مفتوحة، مما أثار غضب إسحاق، الذي شدَّني من أذني، وحاول أن يرفعَني منها، لولا أن تحرَّكَت المسيحية المتوحشة بسرعةٍ شديدة، وكانت هذه إحدى المرات القليلة في حياتها التي تتدخل فيها في قرارات إسحاق في المعاقبة، وراحت تفصل أذني عن يده، وتدافع عني قائلة: عزيزي، لا بد أنه كان يحلم، آه، أليس هو الذي يقضي كل وقته في العناية بالحديقة؟ إن عقله لم يكن معه.

تنفَّس إسحاق بعمقٍ وبدا هادئًا، ألقى نظرةً أخرى إلى النبات المهشَّم، ثم هزَّ رأسه متحسرًا ومضى بعيدًا.

تنهَّدَت أمي وقالت لي: عليك بعمل شيءٍ قبل أن تقتلَ نفسك أو تشعلَ الحريق في المنزل.

٦

– كنتُ أرقد فوق الحصيرة متظاهرا بالنوم، ثم رحتُ أبدِّد وقت الصباح بمراقبة إسحاق من النافذة، كان ملصقًا على الخريطة المثبتة فوق الحائط بالقرب من المرآة بعض الصور لألعابٍ وتمارينَ رياضية مختلفة، تلك التي يمارسها الرجال ذوو اللون الأبيض، كان إسحاق يفعل ما في وسعه لتقليد تلك الألعاب، وكانت حركاته النشيطة تُصدِر أصواتًا ما، ظل يتنفس بعمقٍ وهو ينحني حتى يلامس إصبع قدمه اليُمنَى ثم يلف بجسده مرةً أخرى إلى إصبع قدمه اليسرى، ثم يفتح يده ويقبض عليها ويرفع ذراعه اليمنى ثم اليسرى وكأنه يحمل شيئًا ما.

تبلَّل بالعرق ثم تناول الفوطة، كانت التدريباتُ قد انتهت، ومن فوق عتبة النافذة أمسك بالفرشاة والكوب، فتحرَّكَت الفرشاة في طريقها الصحيح نحو الأسنان التي يدعكها من الداخل في المقدمة والأركان وهو يبصق في الكوب بينما كان — من وقتٍ لآخر — يردُّ على تحية العابرين بجوار النافذة.

شعرتُ أن ذلك يكلفه جهدًا كبيرًا.

بعد لحظات تناول الفوطة، وراح يلفُّ نهاياتها حتى تكوَّمَت فوق بعضها، ولفَّها حول خصره، ثم عاد فربطها حول رقبته، وخرج من حجرة النوم.

كنت أتتبع صوت الشبشب الذي يرتديه في جولته بالمنزل والفناء الخلفي، توقَّف ليرى زهوره وينزع البراعم الذابلة، وسمعتُه ينادي شخصًا ما لإحضار المقص للتخلص من الفروع الذابلة، كان واقفًا في هدوء وسط نباتاته محدقًا إلى الزهور.

كان البعض من سكان المنزل، بمن فيهم الخادمة الكبيرة، يبلِّلون حصائرهم وهم نائمون بالليل، فكانت رائحة البول منتشرة دائمًا في الهواء، ومن تلك الرائحة كانوا ينقلون

الطفل الذي يبول من حصيرته على الأرض إلى السرير ذي العوارض الأربعة؛ حيث تمتص المرتبة تأثير المثانة، ويضعون بعد ذلك المرتبة في الشمس طوال اليوم، لكنها لم تكُن تفقد تمامًا تلك الرائحة اللاذعة المنتشرة في الحجرة.

كان سرير أمي أكبر مرتَين من سرير إسحاق، أو هكذا كان يبدو بالعُقد النحاسية الكبيرة في عوارضه الأربعة والكرات النحاسية الصغيرة في أعلاه وأسفله، كانت تختفي آثار أقدامنا من الدرابزين مما يُجنِّبنا العقاب، ولم نكن نتوقف عن اللعب بكُرات القصدير حتى تقع ونفتقدها، لكنه كان بمقدورنا الحصول على غيرها من المخزن الكبير.

كانت الأعمدة الأربعة بعُقدها المتلألئة وما يحيط بها من كساءٍ فاخرٍ هي ما نتوقُ إليه، وكانت الأربطة مكومة تحت السرير، وكذا سلال الصابون وعلب السردين الصفيح وعلب السكر والشماعات والكافور الدائري والمربع الشكل، وكانت الطرود مربوطةً بأوراق الشجر، ثم كان الصابون المحلي وأباريق الحلوى والأشياء التي كانوا يصنعونها في المنزل، مثل النعناع الذي يضعونه فوق عتبة النافذة في أوراقٍ غريبة.

وفي الركن كانت الكتب المقدسة وكتب التراتيل وبعض الكتب القديمة، وأيضًا صفائح الكيروسين وزيت النخيل وزيت البندق، وثمَّة أوانٍ مطلية بالخزف تحتوي بداخلها الفول والقمح المجفَّف.

عندما كان يأتي أبي إلى هذه الحجرة الغريبة للبحث عن شيءٍ ما، فإنه كان يعود من حيث أتى وهو يهزُّ رأسه بيأس وصبر.

كان صندوق الخزانة تحت السرير أو في أحد الأركان مليئًا بأشياء من نوعٍ مختلف، علب المجوهرات، وخرز، وأساور، وحلقان الأذن وحلي أخرى، وكتاب مقدس ملفوف بالجلد، وكتب التراتيل والصلاة المزركشة بشرائط من الحرير، وكانت أيضًا تلك القطع الصينية وكأنها آثار جروح في الوجه، وثمَّة أشياء أخرى عجيبة ومزخرفة كنا نشاهدها كثيرًا في الاحتفالات، أو مع الزائرين القادمين من أماكنَ بعيدة وغريبة.

في الليل كانوا يفرشون حصائر النوم في حجرة أمي لأولئك الأطفال القادمين مع ذويهم، كان بعض أولئك الأطفال مصابًا بأورام في الرأس، وكانت بطونهم تتلوَّى من الوجبات الفقيرة ومتآكلة أقدامهم، أما عن شعورهم فكانت مليئة بالقمل، غير أن البعض الآخر كانوا يرتَدُون ثيابهم بأناقة، وكانت صناديقهم مليئة بالملابس الجديدة وجيوبهم عامرة بالنقود.

كنتُ أتعجَّب لأولئك الذين يتنازلون بسهولة عن أطفالهم لمنزل الناظر وزوجته، ولم أكن قادرًا على الاستمتاع معهم والإحساس بالألفة تجاههم، كما كنتُ أشعر بمَودَّة في حجرة نوم أبي.

كان «ديبو» ما يزال صغيرًا، ولكونه ولدًا فقد كنتُ أعرف أنه سيلحق بي في حجرتنا، التي كانت رائحة العفونة تتسرَّب إليها من أوراق النخيل المتراكمة، وتلك الكراسات والملفات والحقائب الجلدية والخراطيم المعدنية والأحذية الجلدية، كان إسحاق يقلل من حجم الأوراق المتراكمة بإحراقها مرتَين في العام.

كانت ذرات التراب تتسلل إلى الحجرة من النافذة، وكذا أشعة الشمس، وكنتُ شغوفًا بالكتب المرتَّبة بعناية فوق الأرفف مما أثار دهشة إسحاق؛ فقد كانت شهيتي للكتب عظيمة، حتى إن المسيحية المتوحشة كانت تجعل الزائرين يشاهدونني، وذات يوم أحضرَت «تيني» لتراني وأنا أطالع الكتب، ووبخَتْها لأنها لم تكن تحب القراءة، وذلك ما ضايقني وجعل القراءة عملًا غير محبب؛ لأن «تيني» كانت أقرب زملاء اللعب، وكانت الرابطة بيننا قوية.

كانت أمي دائمًا تتهمني بأنني أمتلك روحًا شريرة، وكنت أبدو مندهشًا؛ لأن أحدًا لا يشاركني إحساسي بالظلم، وفي محاولة للهرب من أفكاري المزعجة رحتُ أتطلع إلى الخريطة فوق الحائط في حجرة أبي، ثم رحتُ أقلد إسحاق في ألعابه الرياضية.

فتحت «لاوانل» الباب دون استئذان، وقالت: ماذا تفعل؟

–من المفروض أن تطرقي الباب قبل الدخول إلى حجرة بابا.

– نعم، ذلك إذا كنتَ أنت بابا.

قلتُ معترضًا: إنها ما تزال حجرتنا.

قالت: ولن تكون كذلك لمدة طويلة، أنت الآن أصبحتَ كبيرًا، هل تعرف؟

– وما الفرق في ذلك؟

هزَّت كتفَيها وهي تقول: سوف تكتشفُ ذلك في حينه، والآن تعالَ لأن ماما تسأل عما تفعله حتى الآن في الحجرة، لماذا لم تأخذ حمَّامك؟

– أي شيءٍ سوف أكتشفه؟

– أوه، يا إلهي، دائمًا تسأل سؤلًا وراء سؤال: ألا تتوقف أبدًا عن الأسئلة؟ إن ذلك عيبٌ كبير فيك؛ فأنت تحب الجدل كثيرًا، فهل تتصور نفسك بابا آخر؟

– ما هو الشيء الذي سوف أكتشفه؟

قالت وهي تتمايل: أعني بأنه ثمَّة تغيُّرات ستحدث في هذا المنزل.

– أية تغيُّرات؟

قاومت «لاوانل» ضحكاتها قائلة: سوف تعرف حالًا.

– لم أعد أهتم، احتفظي بأسرارك لنفسك.

شدَّتني إلى ركن الصالة وسألَتني: ألم يخبرك بابا أنه مسافر؟

– إلى أين؟

– ها أنت تسأل مرةً أخرى، إنني أنا التي تسألك، أنت مجادلٌ عظيم.

كذبتُ قائلًا: أعرف أنه مسافر؛ لأنه في الليلة الماضية حكي لي قصةً إضافية، كعادته حين يسافر بعض الوقت.

– كان يجب أن يخبرك عن مكان سفره.

كنا قد عبرنا الصالة، ووصلنا إلى الفِناء الخلفي، وكان مستحيلًا أن تستمر المناقشة.

دعكَت جسدي في الحمَّام، وشعرتُ بالمرض والخوف؛ فقد تسببت كلمات «لاوانل» في قلقي، مثلما كانت تفعل أمي حين تتكلم ولا تنتهي مما تقول كنت قد ورثتُ عن إسحاق عدم الرضا.

كنتُ أنام على حصيرتي في حجرة أبي، وكانت «تيني» وأولاد العم ينامون فوق الحصير العادي الذي أكرهه كثيرًا؛ لأن بعضًا منهم وهم أكبر مني كانوا يبولون عليه.

سافر أبي ودخلتُ حجرة نوم أمي، كنتُ أنتظر عودته بقلق، وحين عودته سارعتُ باستعادة مكاني، لكن أمي منعَتْني قائلة: «وول»، لماذا لا تنام مع الآخرين هذه الليلة؟ لا يجب أن تتخلى عنهم بسبب عودة أبيك، كما أن أخاك الصغير يأتي أحيانًا لينام معك.

لم أصدِّق اهتمام أمي بأحاسيس «ديبو»، ورضيتُ بتأجيل عودتي إلى مكاني في ليلةٍ أخرى، وفي الليلة التالية عُدتُ كما كنت، كانوا ينامون بطريقةٍ غريبة، وسرعان ما يبدَءون في الشخير، وكانت الصفَّارة التي تطلقها أمي تقودهم إلى السرير، وأحيانًا كنتُ أستيقظُ في منتصف الليل على أثر أصواتٍ في الحجرة، كانت شبيهةً بتلك الأصوات التي كنا نسمعها عند ذهابنا للمصنع لرؤية الليمون الهندي والبرتقال والجوافة التي يعبِّئونها في عُلب، بعد سلسلة من عمليات التنظيف والتقطيع بالمحرِّكات والسيور والكبَّاسات وغلَّايات البخار.

في الصباح كانت المناقشة غالبًا تدور حول معرفة الشخص الذي تبوَّل فوق الحصيرة، وكانت أمي متخصصةً في حل ذلك اللغز، كانت رائحة البول تنتشر في كل صباح.

في كثيرٍ من الأحيان كنا نمارس اللعب في الشوارع العامة، وكنا نتسلَّق الأعمدة وسور الكنيسة؛ حيث نرى «آكية»، ولم تكن مواكب الجنازات تجعلنا نلتزم الهدوء والأدب؛ فقد

كانت شبيهةً بحفلات الزفاف والرقص، وكان النعش أحيانًا يقوده الحصان والتابوت مُتوَّجًا بالزهور وأوراق النخيل، كانت أجراسُ كنيسة القديس بطرس تدقُّ قليلًا قبل وصول حشد المشيِّعين الذين تبدو على وجوههم علاماتُ الحزن.

كانوا ينقلون النعش من العربة إلى داخل الكنيسة، ويضعونه في مواجهة المذبح وهم يرتلون ويُنشِدون أناشيدَ هادئةً تتناسب مع الموقف، بينما النسوة يسترسلن في النُّواح، وتظهر الأبواق من حيث لا ندري، كذلك المزامير والطبول والدفوف.

Ileo, ile o
Ileo, ile o
Baba (iya) re'le re
Ile lo lo larara
Baba re'le re
Ile lo lo, ko s'ina[١]

– كانت السرقة من المواقف التي يشارك فيها الصبية والأولاد في جلد السارق، وكانت سرقة اللحم من إناء الشوربة تبدو واضحةً على اللص؛ حيث يكون الفم ملطخًا بزيت الإناء.

ذات مساء كانت أمي تجهِّز العَشَاء، وكنا نطوف حولها ونمسك بها، ثم تطرق الحديث إلى الحصائر المبلَّلة من البول، وراحت تهدِّد بالعقاب الشديد لمن يبلِّل الحصائر أو يسرق اللحم.

نظرَت نحوي وقالت: «وول» يخطط للسرقة من الإناء.

– لا.

– وربما فعل ذلك دون أن نراه.

قال جوزيف: إذا رأيتِه متلبِّسًا فإنه سيدافع عن نفسه.

---

[١] المنزل، المنزل،
ذهب الأكبر سنًّا للمنزل،
مباشرة،
ذهب الأكبر للمنزل،
المنزل المقيَّد به، إنه لن يضل طريقه.

قالت ماما: لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمامي، إن والده هو يتمتع بقَدْرٍ كبيرٍ من الصبر عليه.

قال ابنُ العم مقاطعًا: على أية حال، فإن «وول» مُغرَم بسرقة الحلوى والسكَّر ولبن البودرة وأشياء من هذا النوع.

نظرتُ إلى ذلك الولد متحديًا إياه، وتعجَّبتُ لمعرفته تلك، لكنني فرحتُ؛ لأنه لا يعرف أنني دائمًا أسرق من علبة اللاكتوجين[٢]

بعد أن تمَّ فطام «ديبو» وبدأ يأكل مثلنا كانوا يضعون العلبة الكبيرة من اللاكتوجين في أحد الأركان، كنتُ أُحب تلك العلبة وما تحويه من بودرة ذات طعمٍ لذيذ وشهي كان يبدو لي أشهى طعم في العالم، لم يكن ذلك سرقة؛ فإن أحدًا لم يتذكَّر العُلبة التي أخفيتُها وسط الأشياء الثمينة حتى أُشبع نهَمي منها من وقتٍ لآخر.

بعد شهرٍ تم اكتشاف العلبة، لكنَّ أحدًا لم يعرف ما تبقَّى منها، راحت أمي تستدعي كل واحدٍ منا وتسأله ثم تهدِّده، وصمَّمَت على النيل من اللص المتهوِّر فور معرفته والإمساك به.

مضى أسبوعٌ دون أن أعترف، وبينما كانت أمي تُعِد الخضروات في الفناء راحت تفتح باب مخزن المئونة، وحين شاهدَتْني أومأَت برأسها، وقالت: إنه أنت، كنتُ أعتقد ذلك، ودائمًا كانت شكوكي تحوم حولك.

لم تضربني كالعادة، لكنها ظلت هادئة، مما أفزعني، وشعرتُ بالقلق؛ لأنني توجهتُ بنفسي نحو الفخ.

قالت: سننتظر عودة أبيك كي ينال منك، ثم أتولى أنا دوري في العقاب.

بدأتُ أخطِّط للهرب، إن أحدًا لم يتذكر العلبة منذ وقتٍ طويل، وكنتُ أحتفظ بها في حمايتي لمدة شهرَين تقريبًا، وأنا أنظر إليها في كل مرة وكأنها جائزتي الخاصة.

قلتُ لنفسي: سوف أهربُ بعيدًا بعد أن أقوم بتفريغها على الأرض، كنوع من الاحتجاج النهائي.

تحركتُ خلسةً من مخزن المئونة إلى حجرة النوم، ثم إلى الحجرة الأمامية؛ حيث تُوجَد غالبية كتبي، وضعتُ الكتب في حقيبةٍ صغيرة، وانتظرتُ لحظة الهرب المناسبة.

---

[٢] علبة لبن أو شيء مصنوع من اللبن.

عاد إسحاق من المدرسة، فسارعَت المسيحية المتوحشة بالاختفاء معه في الحجرة كي تخبره بالاكتشاف الكبير، فكانت تلك هي اللحظة المناسبة للهروب، سرتُ فوق أطراف أصابعي عبْر الصالة إلى الحجرة الأمامية، لكنني سمعتُ أصواتًا من حجرة النوم جعلَتني أتردَّد، توقَّفتُ لأسمع، كان يبدو أن أمي غيرُ مسرورة؛ لأن إسحاق لم يحاول معالجة الموقف.

سمعتُه يتذمَّر: كان يجب أن تجلديه، لماذا تسبِّبين لي القلق؟

وسمعتُها تردُّ: لكنه انتهى من نصف العُلبة تقريبًا؛ فأنا أتذكر جيدًا بأنها كانت مليئةً عن آخرها عندما استخدمتُها آخر مرة من أجل «ديبو».

قال إسحاق: أرجو عدم الإزعاج، ولكِ أن تعاقبيه على العلبة بكاملها، لكنني ما زلتُ لا أفهم لماذا لم تضربيه في وقتها؟

لم تكن المسيحية المتوحشة تعرف وجهتَها وهي تخرج من الحجرة، وكان الوقت كافيًا لإلقاء الحقيبة من الباب المنخفض إلى الرصيف، سحبَتْني إلى الفِناء الخارجي، ولم أكن أفكِّر إلا في تلك الحقيبة الملقاة على الرصيف، التي تحتوي على كتبي المفضَّلة وملابسي، صاحت تُطالِب بالعصا فوجدتُ نفسي أقفز في الفناء تجنبًا للضربات القاسية واللكمات باليد والقدم، ظَلِلتُ خائفًا حتى اللحظة الأخيرة، وتمنَّيتُ لو حدث الضرب خارج فِنائنا، ثم خطر بذهني أن أسارع بالحركة ملتقطًا ممتلكاتي، وأجري في شوارع الإرسالية في كل الاتجاهات، بعيدًا عن المنزل وسكان المنزل الذين يُضمِرون لي عداءً خاصًّا، وكانوا سببًا في طردي من حجرة إسحاق.

كانت رأسي تزدحم بأفكارٍ كثيرة وغريبة، وكنتُ أشك كثيرًا في بقائي بذلك المنزل مدةً طويلة، قررتُ أن أُمسِكَ حقيبتي وأذهب بعيدًا عن الإرسالية باحثًا عن حظي في مكانٍ آخر.

عندما تسلَّلتُ إلى الخارج بعد قليلٍ لم أجد الحقيبة، كان جوزيف قد وجدها واحتفظ بمحتوياتها حيث يحتفظ بأشيائه، ولم أكن أعرف ما أفعله معه، وفي نفس تلك الليلة بعد أن ناموا جميعًا وكانت أمي تهزُّ السقف بشخيرها مشيتُ فوق أطراف أصابعي نحو مخزن المئونة، وملأتُ فمي بلبن البودرة ثم عُدتُ مسرعًا إلى الحصيرة، كانت البودرة تذوب وتتحلل ببطء في حلقي.

في الصباح لم أكن أُحسُّ بأي ألمٍ من ضرب الليلة الفائتة.

٧

كل شيء في المنزل كان مستقرًّا، وكان من العسير أن يتنبأ أحدٌ بالتغيير، الضيوف، الأقرباء، الزائرون الذين يعبُرون بالصدفة، العلاقات البسيطة، أولاد العم وبعض الأحداث القليلة المتكررة، كنا نُحسُّ كل ذلك ونتعايش معه، وفجأة تغيَّر كل شيء، بدت الملامح التي نعرفها غريبة عن ذي قبل، وتغيَّر كلُّ من كنتُ أنا و«تيني» نتعامل معهم ونعايشهم، كما أن «تيني» نفسها تغيَّرت، حتى رحتُ بدوري أتساءل عما إذا كنتُ أنا أيضًا قد تغيَّرتُ دون أن أعرف.

قلتُ لتيني: هل ستخبرينني إذا بدأتُ أتغير؟ سوف تقولين لي بأنني تغيَّرت، أليس كذلك؟

قالت «تيني»: عن أي شيءٍ تتحدث؟

– ألا تلاحظين؟ جوزيف، لاوانل، نوبي، كل شخص تغيَّر، بابا وماما تغيَّروا، وحتى السيد «أديلوا» تغيَّر.

إنه مولد «ديبو» الوشيك، لقد حدث التغيير قبل مولده بفترة طويلة، لم يكن هناك من شيء يمكن ملاحظتُه على المسيحية المتوحشة، التي لم تكن سوى متوحشة، سوى أن بطنها بدأ في الانتفاخ حتى خطر ببالي ذات مرة بأنها لا بد قد تناولَت كثيرًا من الطعام، وأن هذه طريقة في نمو الكبار، ثم تمنيتُ أن أنمو وأكبر حتى أصبح طويلًا مثل أبي.

كان صراخ أخي المولود وتلك الموهبة العظيمة على إزعاج الآخرين هما نهاية ذلك التغيير، فاختفت نظرات إسحاق القلقة، وتبدَّلَت بابتسامات لا نهائية مع بعض الضحكات، وبدا المنزل في حالة من الاسترخاء، وانهال الزائرون إلى المنزل، فرحتُ أبحث عن ملاذي عند «جونا» هاربًا من ذلك الضجيج المفاجئ.

أحيانًا لا يكون التغيير متعلقًا بالأشخاص، وهذا ما حدث ذات مرة، حين قامت المسيحية المتوحشة فجأة بإعادة ترتيب الأثاث، وفي أثناء ذلك كنا نصطاد الحشرات من المفارش والأغطية، وكان أن اكتشفنا كثيرًا من الثقوب في أغطية الوسائد والمساند، وكنا نقوم بتسخين الإبرة فوق نار الشمعة للقضاء على الحشرات، وتم نقل الكراسي المنخفضة والكراسي ذات المساند من مكانها.

تغيَّرت أيضًا أماكن النوم، وتم إبعاد كل شخصٍ من حجرة نوم أمي، وأصبحَت الصالة هي مكان النوم الجديد بعد أن تحرَّكَت الكراسي قليلًا، وانتقلت المائدة من المنتصف إلى أحد الأركان، فكانت الحصائر والوسائد تنتشر أثناء النوم حتى إن إسحاق كان يتعثَّر بالأجساد المتراكمة عند نهوضه في الليل للشرب.

كان ذلك تغييرًا يبعث على السرور، ولم يعُد الواحد منا يستيقظ وأنفه ملتصقٌ بتلك العيون السوداء.

كانت الأخبار التي نسمعها أيضًا تحمل بعض التغيير، ولم نكُن نتعمَّد سماعها؛ فقد كان من العسير ألا نستمع إلى المحادثات القائمة في أرجاء كثيرة من المنزل، كان الزائرون يأتون دائمًا ولا يتوقفون عن الحديث والجدال، وحين توقَّف بعضهم عن الحضور أصبح لزامًا علينا أن نتعلم لغةً جديدة وعلاقاتٍ جديدة مع الأشياء والناس.

شعرتُ أكثر من مرة أن سكان المنزل يُعِدُّون أنفسهم للخروج من «آكية» تمامًا، إلى أين وكيف ولماذا؟ إن ذلك لم يحدث قط، كان مجرد إحساس فقط!

عند مولد «فولاساد» أصبح التغيير مختلفًا، كان مولد «فولاساد» بعد «ديبو» لكنها لم تكن مثله في شيء، كانت طفلةً هادئة، ثم انقلب حالها، وصارت تصرخ ليل نهار وهي راقدة في سريرها الهزاز، كانت تأكل بصعوبة كبيرة، وكنا نلاحظ المجهود الكبير الذي تبذله واضحًا في عينَيها، عندما كنا نلمس يدَيها حين كان عمرها عشرة شهور كانت تقبض على أصابعنا بكل قوِّتها من خلال فتحات السرير الهزَّاز، ثم فجأة ترفُّ بعينَيها وتحرِّك أنفها، كانت عيناها تؤكِّدان شدة ما تعاني وهي تُعاوِد الصراخ دون توقُّف.

مضت أمي وإسحاق إلى حجرة نومه وظلَّا بداخلها بضع ساعاتٍ استطعنا خلالها أن نسمعهما يتحدثان دون أن نقدر على التقاط أي كلمة، كانا يتحدثان بصوتٍ منخفض، ثم استدعيا الخادمة التي كانت حادة وعنيفة، وهي تنكر التهمة الموجَّهة إليها.

قالت: إن الله شاهدٌ على ما أقول.

ثم كرَّرَت كثيرًا: لم يحدث شيء، لا شيء يا سيدي، لا شيء على الإطلاق.

وانصرفَت من حجرة النوم راسمةً فوق وجهها علاماتِ الظلم والاتهامات والشكوك الزائفة.

ذهبَت «فولاساد» في الصباح إلى المستشفى ولم تعُد إلا في وقتٍ متأخر بعد الظهر، وكان جسدها الصغير ملفوفًا بالشال والبلاستر من تحت إبطها وحتى أردافها، ولم تكن المسيحية المتوحشة تحملها فوق ظهرها وإنما بين ذراعَيها، لكنها لم تكن تتوقف عن الصراخ من وقتٍ لآخر، وفي ليالٍ عديدةٍ كانت تبقى مستيقظة.

نهضتُ يومًا من فوق حصيرتي، ورحتُ أحبو ناحية السرير الهزَّاز، ثم نظرت إلى عينَيها الهادئتَين فبدا لي أنها لا تعرفني.

ذات يومٍ كانت الخادمة تجلس وحيدةً مع نفسها وهي تبكي، كانت دائمًا وحيدة لا يتحدث معها أحد، كان طبق الطعام بجانبها كما هو لم تأكله، وحين سألتُها عما حدث أفزعَتْني ببكائها الكثير المفاجئ، حتى إنني لم أستطع أن أتبيَّن ما تقول من خلال ذلك البكاء.

قالت: أُقسم أنها لم تقع مني، أُقسم بالله أنها لم تقع مني في أي وقت؛ فقد كنتُ أعتني بها.

كانت تجلس على بعد خطواتٍ من المخزن في الفناء وهي تتطلع إلى أحد نوافذ حجرة نوم ماما، وحين فتحَت ماما النافذة لم أكُن قد رأيتُ وجهها من قبلُ بمثل ذلك الكم الهائل من الحزن والغضب وهي تحدِّق في الخادمة الباكية، كانت قد سمعَت الخادمة وظلت تحدِّق فيها.

نظرَت الخادمة إلى أعلى، وشاهدَت المسيحية المتوحشة، فجفَّت دموعها في الحال، وفي وقتٍ متأخر من نفس المساء تم استدعاء الخادمة مرةً ثانية، واستغرق الحوار وقتًا طويلًا كنتُ غرقتُ في النوم قبل الانتهاء منه.

في الصباح كانت الخادمة قد ذهبَت هي وأمتعتُها بينما ذهب إسحاق وأمي وفولاساد إلى المستشفى الكاثولوكي في «إيتابادي»، فساد المنزل الفرح لغيابهم رغم مرض «فولاساد»، كنا فقط نعاني قليلًا من القلق.

أعلن جوزيف أن الخادمة حزمَت أشياءها الليلة الفائتة، ولم يكن يعرف الجهة التي ذهب إليها إسحاق والمسيحية المتوحشة مع «فولاساد»، لكنه حين نظر من السور إليهم عرف أن طريقهم يؤدي إلى المستشفى في «إيتابادي».

لم يحدث أي تغيُّر في ملامح «فولاساد» عند عودتهم ولم يتغيَّر شيء في تحرُّكاتها فوق السرير الهزَّاز، أثناء وجود إسحاق في المدرسة لم تكن أمي تغادر حجرته، كانت ترقد فوق

السرير أو تُمضي وقتها في الصلاة، كانت تصلي كثيرًا، لكن النجار الذي يملك ورشة في ركن الطريق المؤدي إلى سور الكنيسة جاء إلى المنزل ذات صباح وهو يحمل صندوقًا خشبيًّا صغيرًا ذا شكلٍ مربع، تناول أبي الصندوق، ووضَعَه في حجرة نوم المسيحية المتوحشة التي سمعتُها تقول: يجب أن يشاهدها الأولاد أولًا، أليس كذلك؟

كانت «فولاساد» راقدةً ومغطاةً بقطعةٍ طويلةٍ من القماش الأبيض تمتد حتى قدمَيها وكانت عيناها مغلقتَين، كانت «تيني» حين نظرت إليها واقفةً بهدوء دون أيِّ إحساس، بينما وجه المسيحية المتوحشة كان مزينًا بابتسامةٍ حزينةٍ حلوة وهي تقول أشياء لم أستطع أن أفهمها، لكنني فهمتُها وهي تقول: لا يجب أن تحزنوا على أي شيء؛ لأن «فولاساد» لم تعُد تعاني من الآلام، هل ترَون؟ لم تعُد تعاني أي شيء.

نظرتُ مرةً أخرى إلى «تيني»، وتوقَّعتُ أن تفعل شيئًا أو تقول أي شيء؛ لأنها أكبر مني، لكنها ظلت تحدِّق في الجسد بعينَيها الهادئتَين متفحصة أختها الساكنة في صمت.

فجأة كسرتُ الصمت حين تملَّكَتني قوةٌ غريبة، وجريتُ نحو السرير وأنا أبكي، أمسكَني أبي، ورحتُ أقاوم محاولاته في تهدئتي، وكانت دموعي غزيرةً وأنا منجذب نحو السرير، وثمَّة تساؤلاتٌ كانت تعترضني.

رأيتُ من خلال دموعي تلك الدهشة الغريبة فوق وجه أمي، وسمعتُها تقول: إنه لا يفهم، لا يفهم!

توقعتُ تغييرًا كبيرًا برحيل «فولاساد»، لكنَّ شيئًا لم يحدث، إن شيئًا لم يتغيَّر، وكان ذلك فوق طاقتي، فبدَأتُ أدبِّر المكائد بين أبي وأمي من أجل حدوث تغييرٍ ما، ولكن دون جدوى، كما لو أن «فولاساد» لم تمُت، أو كما لو أن موتها لم يكن يعني شيئًا على الإطلاق.

كانت الأبنية في «آكية» من الطين الهش، فكانت تنهار بسرعة عند سقوط الأمطار في يوليو وأغسطس، وكذا كانت الرياح قوية تُطوِّح بألواح الحديد المتموجة إلى أسطحٍ أخرى، وعند انهيار البيت فوق ساكنيه كان الذي يظل حيًّا يقف مبللًا ومرتعشًا وسط بركة من المياه ويحكي قصة الكارثة، أما إسحاق فإنه يفتِّش في حقيبته عن بعض الملابس القديمة بينما تذهب المسيحية المتوحشة لإعداد الشاي المغلي والعسل والسكر واللبن مع قطعةٍ كبيرة من الخبز الأبيض بالزبدة، وذات يوم من أيام المطر الشديد تسللتُ إلى الخارج ففتحَت أمي الشباك قائلة: إلى أين أنت ذاهب؟

– ذاهب إلى المدرسة.

– لماذا؟ ماذا تنوي بالضبط؟

– سوف أجمع بعض الجوافة، لا بد أن الأرض مليئة بالجوافة بعد سقوط الأمطار.

– دع «بونمي» تذهب معك؛ فقد يصيبك البرد.

– لا، إنها شجرتي أنا، شجرة الجوافة ملكي أنا.

صاحت المسيحية المتوحشة قائلة: هل جُننت؟ قلتُ لك ألَّا تذهب، تعالَ هنا.

رجعتُ ووقفتُ على قدميَّ المرتعشتَين ثم وضعتُ يدي خلف ظهري.

– هل تسمع ما أقول؟

– أسمع ماما، أنا ذاهبٌ للقراءة في كتابي.

– وما الذي يجب أن تقوله عندما تتحدث؟

– يجب أن أقول نعم، نعم ماما.

حدَّقَت فيَّ بعنف وقالت: اغرُب عن وجهي، اذهب بعيدًا.

– نعم، ماما.

جاءت «بونمي» من البوابة الخلفية، فأمسكتُ بها قائلًا: إذا امتدَّت يدكِ إلى شجرة الجوافة فإن العفاريت ستُهاجمكِ في الليل، إنها شجرتي أنا.

– اذهب بعيدًا عني، ها أنت لا تعرف شيئًا عن الأرواح.

– لو اقتربتِ من الشجرة وقمتِ بلمسها فسوف تعرفين مَنْ منا على صواب، ها أنا ذا أحذِّرك.

– أنتَ تشعُر بالغَيرة فقط؛ لأن ماما لم تسمح لك بالذهاب كي تحصل على الجوافة.

– إنني أحذِّركِ للمرة الأخيرة، لا تقتربي من الجوافة حتى لو كانت ملقاةً على الأرض.

أخبرَت أمي بتهديداتي، وفي المساء كانت تحدِّق فيَّ من وقتٍ لآخر، عندما انتهى إسحاق من طعامه أعلنَت المسيحية المتوحشة بصوتٍ عالٍ وهي تنظر نحوي: سألحق بك كي نتناقش.

صاح إسحاق: أوه، حسنًا.

رفعَت «بونمي» إصبعها في اتجاه أنفي: والآن سوف نرى من الذي سيتلقَّى الضربات هذه الليلة.

– لماذا؟ ما هي الجريمة التي ارتكبتُها؟

– عنيد، عندما أخبرتُها قالت إنك عنيدٌ جدًّا، وإنها ستقول لبابا.

ذهبتُ إلى الحجرة الأمامية للقراءة متوقعًا استدعائي في أي وقت، ولم أكن قلقًا بشأن ذلك.

– إلى أي شيءٍ تنظر؟

– أنفك.

– ها أنت تصير وقحًا مرةً أخرى، سوف أخبر ماما.

– أستطيع أن أكون وقحًا مع الذين يكبرونني في السن، أما أنت فمَنْ تكونين؟

– الوقاحة هي الوقاحة، ويجب أن تنتبه لوقاحتك، ذلك ما قالته ماما.

قلتُ لها: هل أسأتُ إليك؟

حدَّقَت «بونمي» في وجهي ونظرةُ ارتباك وحَيرة تتلألأ في عينَيها: «وول»، ماذا جرى لك؟ لماذا تريد أن تتصارع مع الجميع؟

– اتركوني وحيدًا.

– لم أستطِع قط أن أكون وحيدًا، كانوا دائمًا يُصدِرون التعليمات بتعقُّبي، فلم أسعد إلا قليلًا بالوحدة، الوحدة، إن «بوكولا» هي التي تناسب مزاجي، فكنتُ أهرب إلى بائع الكتب كلما سنحَت الفرصة، إن «بوكولا» تعرف كيف تكون هادئة حتى وهي تتكلم، كانت تنقلني إلى عالم الهدوء الذي أتوق إليه، وكنت أتعمَّد ملاحظتها بحثًا عن إجابة للأسئلة التي تدور في ذهني.

كنتُ أشعر بالأمن والسلام مع «بوكولا»، فقط مع «بوكولا».

– كانت المسيحية المتوحشة تتناقش دائمًا مع إسحاق بشأني بعداء وخصومة، ولم أكن أتردد في التنصُّت على ما يقولان، وأحيانًا كانت «تيني» تأتي لاستدعائي، وفي أحيانٍ أخرى كانت «نوبي» أو «جوزيف» هما اللذان يبلغانني، وكانا يفرحان كثيرًا لخوفي من ذلك الاستدعاء، كنت أسير خلفهم لاصقًا أذني فوق الستارة لأجل مزيد من التنصُّت.

قالت أمي لإسحاق: لا جديد، إنه دائمًا يميل إلى التأمل، إنه دائم التفكير.

– وإذن فلا شيء يستدعي القلق.

– إنها ليست ظاهرةً صحيةً بالنسبة لطفلٍ مثله، كان طبيعيًّا عندما كانت «تيني» هي صديقته الوحيدة في اللعب، لم يكن بمثل هذا السوء، أما الآن وبعد مُضي بضع سنوات فإنه يميل إلى التفكير والشرود، ثم ذلك التوقف الطويل الذي يقضيه معك يساعده في قطع صلته ببقية العائلة.

– إذن فأنت تلومينني الآن؟!

– أنا لا ألومك يا عزيزي، وإنما أحاول ألا نساعده أكثر؛ لأن ذلك يجعله عنيدًا.

– لم أشعر يومًا ما أنه عنيد.

– لأنك دائمًا خارج المنزل، كما أن بقية الأولاد لا يخبرونك بما يفعل.

– سوف ألاحظه عن قرب.

– يجب أن نساعده على الاحتكاك بالآخرين، يجب ألا ينطوي على نفسه.

– نعم، هو كذلك.

– جاءت السيدة «أدوفوا» لزيارتنا، وشعرتُ — فور رؤيتها — بمعنوياتي ترتفع قليلًا، كانت سيدةً بسيطة ومتصالحة مع الجميع ما عدا زوجها ذا الأحاسيس الغليظة، كانت «أدوفوا» أجمل امرأة وقعَت عليها عيناي في العالم، ولم أكن أحقد على زوجها الغليظ الذي كان بمثابة أبي الروحي، الذي لن يعترض على زواجي من تلك المعبودة حين أكبر وأصبح رجلًا من الرجال.

كنتُ دائمًا أتابعها بنظراتي وهي تتجول في الحديقة مع زوجها، ولم تكن تدعونا بأسمائنا وإنما بألقابٍ مختلفة، فكانت تدعو «تيني» «بالمرأة الرقيقة obinrin Jeje»، وكان ذلك اختيارًا صائبًا يوحي بمهارة وذكاء السيدة «أدوفوا»، وعند رؤيتها لي ذات يوم وأنا أحاول جاهدًا أن أساعد «جوزيف» في تكسير الأخشاب التي تشعل فيها النار للتدفئة باستخدام الفأس أطلقَت عليَّ لقب «قاطع الأشجار Lagilagi» وسرعان ما عرفني الجميع بذلك اللقب، أما «ديبو» فقد لقبَتْه «جاماني Jamani» لتشابهه مع الجنس الألماني في حب الشغب والحرب.

كانت معبودتي في أوقات الفراغ تتجول مع زوجها بين الزهور دون أن أتوقف عن متابعتهما، حين يكون «جوزيف» إلى جوارهما، يقوم بإعداد كتل الخشب وتنسيقها، وفي مكانٍ آخر ليس ببعيد تكون المسيحية المتوحشة وهي تداعبُ الزهور من الساق وتشمُّ رائحتها، جاء «جاماني» في ذلك الوقت من حيث لا أدري كي يمارس عمليات الشغب، وكان يمشي متأنقًا وهو يقفز إلى الأمام والخلف في حركاتٍ جنونية، لكنني لم أشأ إلا أن أتسامح معه.

اتجهَت السيدة «أدوفوا» ناحيتي وقالت: Lagilagi أعرف أنك تعتني دائمًا بالزهور مثل أبيك.

شعرتُ بشيءٍ خاص وهي تكلمني ورحتُ أتابع صوتها مرةً أخرى في رأسي حين تدخَّل «جوزيف» وقال بصوته الرنان: Lagilagi! لا تَدْعيه بهذا الاسم مرةً ثانية مدام، إنه لا يقدرُ على فعل شيء؛ فهو كسولٌ جدًّا، ولا يستطيع حتى أن يحرك الذبابة من فوق أنفه إذا تسبَّبَت في مضايقته.

تعجبتُ لقدرة «جوزيف» على التقاط ومعرفة لغة اليوروبا الخاصة؛ فلم يكن يتحدث بها إلا بطريقة غريبة رغم قضائه سنواتٍ عديدةً معنا، شعرتُ بالخجل مما قال، ففتحتُ فمي وحدَّقتُ فيه قائلًا: هل ذلك حقيقي؟

قفز «ديبو» إلى جوارنا، فأشار إليه «جوزيف» قائلًا للسيدة «أدوفوا»: انظري إلى أخيه الذي يصغره بثلاث سنوات تقريبًا، إنه أكثر صلابةً من ذلك الذي تسمِّينه Lagilagi وأراهن أن «ديبو» يستطيع أن يرفعَ هذه الفأس ويشقَّ بها الخشب.

تحركتُ خطوة للأمام دون تردُّد، ثم رفعتُ الفأس، وضربتُ كتلة الخشب، وكانت ماما قد التحقت بنا، لكن «جوزيف» لم يفعل شيئًا سوى أنه تنحَّى جانبًا كالذليل وراح يتظاهر بالقراءة.

شعرتُ بحرجٍ شديد، ما الذي فعلتُه؟ ولماذا يحاولون التقليل من شأني أمام معبودتي التي ستصبح زوجتي؟

تجوَّلتُ ببصري من واحد إلى الآخر، كانوا بُلَداء ومني كانوا يضحكون.

ظهرَت نوبي فجأة وقالت: إن مجرد رؤيته لأي شجارٍ يجعله يهرب، إنه يبكي لمجرد أن يلمسه أحد.

استطردت وهي تضحك باستهزاء: هاآآم، إن الإغماء يصيبه فور الاقتراب منه، إذن دعه مع كتبه.

سألتُ نفسي عن الشخص الذي يتحدثون عنه، وأحسستُ أن كل ما يقولون مجرد ألغاز، ربما كانوا يتحدثون عن شخصٍ ما أو عملٍ ما، لكنني أدركتُ أنهم يقصدونني بالحديث، ولم أستطع التعرُّف على نفسي فيما يقولون.

كان «ديبو» ما يزال يقفز حين أوقفه «جوزيف» وأمسك به مُحوِّلًا وجهه ناحيتي: أراهن أن «ديبو» يستطيع أن يضربه ضربًا شديدًا.

قالت المسيحية المتوحشة: طبعًا، إنه يستطيع أن يضربه حتى يتوسل إليه طالبًا الرحمة.

لم يكن يهمُّني شيء سوى معرفة ما يدور برأس السيدة «أدوفوا»، هل كانت تصدِّق كل ذلك؟ كانت تقفُ مع زوجها بجانب شجرة الجوافة الصغيرة وابتسامةٌ غريبة تعلو وجهها.

تساءلَت «نوبي»: لماذا لا نرى بأنفسنا؟ إن «ديبو» حقًّا يستطيع أن يضربه.

لم يكن «ديبو» من ذلك النوع الذي يستطيع أن يقاوم دعوته للشجار وقد نجحوا في استفزازه، فبدأ يفرك قبضة يده الصغيرة متأهبًا لوضع القتال، وهو يقفز من جانب

إلى آخر مقلدًا رقصة الحرب، حتى لم يسبق لي قط من قبلُ أن رأيتُ مثل تلك الإثارة فوق وجهه، هتفوا جميعًا من كل الاتجاهات بينما كنتُ واقفًا بدون اهتمام وأنا أستمتع بحركاته الجنونية، كان شبيهًا بالقزم، مرحًا، خفيف الروح، وكان الكبار يتطلعون في شغفٍ لما سوف يحدث.

سمعتُ فجأةً صوت «جوزيف»: «ديبو»، تقدَّم، دَعْه يعرف نفسه.

تحرك «ديبو» الصغير ناحيتي رافعًا قبضته في الهواء، ولم أستطع أن أفهم السبب في اهتمامهم.

سمعتُ أصوات احتجاج وتحذير، ولكن الوقت كان قد مضى؛ فقد اجتاحَتْني عاصفة من الغضب، وانتفخَت عروقي، وكانت اللكمات فوق وجه وجسد «ديبو» متلاحقة دون وعي مني، ولم أستطع أن أتذكَّر ما فعلتُ.

أدركتُ أنه صوت «جوزيف» الذي قال: «وول»، o to, o to،[١] هل تريد أن تقتله؟

كان صوتُ أمي قلقًا حين قالت: «وول»، نحن فقط نقوم باستفزاز مشاعرك، لا تنسَ أنه أخوك الصغير، آه، لا يجب أن تكون عنيفًا معه هكذا مهما كان الأمر.

شعرتُ بالسماء تسقط فوق رأسي فارتعشتُ بشدة، ولم أشعر بشيءٍ إلا بيد المسيحية المتوحشة فوق جبهتي، كانت تبدو قلقة.

سمعتُ نُواحَ «ديبو» الذي حملوه إلى غرفة الطعام، وقدَّموا له الحلوى وعصير الفاكهة كنوعٍ من العزاء، وكانت المسيحية المتوحشة تنظر بعينَيها نظراتٍ غريبة وقلقة ناحية «ديبو» الذي يبكي، كانت تتألم وتبدو خائفة حتى إنني فكرتُ هامسًا لنفسي: إنها أمٌّ مختلفة عما هي عليه دائمًا.

أضافت قائلة: ولكن لماذا؟ لماذا؟ كان الأمر كله مزاحًا، هل تريد أن تقتله؟ إنه ما زال طفلًا، أنت تعرف أنه طفل، ولا يصح التعامل معه بهذه القسوة.

توقَّف «ديبو» عن الصراخ، وخرج «جوزيف» من الحجرة، فأحسستُ أنه يبتعد عني، أو هكذا تخيلتُ لكن كلماته كانت تُبيِّن ما يشعر به حتى إنه لم يستطع أن يخاطبني مباشرة وهو يقول: الأخ الأكبر سعيدٌ بنفسه، الأخ الأكبر مسرور بما فعل فلماذا نقلَق وننزعج، كان يجب أن نتركه ليقتله.

ثم راح يصفِّر بفمه صفيرًا طويلًا.

---

[١] كفى، كفى.

منعته المسيحية المتوحشة عن الكلام غير أنني لم أجد اختلافًا كبيرًا في موقف كلاهما، كانت تتلبَّسني فكرةٌ واحدة هي أن عالم الكبار يخلو تمامًا من العدالة والمنطق؛ إذ كنتُ متأكدًا من أنني مظلوم؛ لأنه كان أخي الذي مارستُ عليه عنفي حين رفسني بقوة فوجدتُ نفسي أمام الأمر الواقع.

استدعَتْني المسيحية المتوحشة بعد صلوات المساء إلى حجرة النوم وقالت لي: إن الشيطان دائمًا يتدخل بينك وبين مَن تحب، وإنه لمن اليسير أن تقع تحت تأثير الشيطان.

كنت أنا و«تيني» نحب «ديبو» كثيرًا، وكنا نستمتع بحركاته وإيماءاته وضحكاته لكونه كان صغيرًا لا يعاقبه أحد إذا ما ارتكب حماقة ما؛ فقد كنا ننسب إليه أخطاءنا، مثل الفازة التي كسرناها أنا و«تيني» بينما كنا نتشاجر.

أصبح «ديبو» بعد فترة طويلة يطلب مقابلًا لخدماته التي نتجنب بها العقاب؛ فكان يطلب قطعة من اللحم أو الحلوى أو البطاطا حتى أصبح ماهرًا في الحصول على ما يريد، فأدركتُ أن الأمر سينتهي به إلي الخدمة في دكان المسيحية المتوحشة، وأنه سيكون انتهازيًّا، ولم أعد أعرف ماذا أفعل معه.

كانت مجرد فكرة تُنذر بخطرٍ كبير.

أخبرَني «جوزيف» وآخرون بمواصلة ضربه حتى يقع ويصرخ مدافعًا عن نفسه، لكن الفكرة لم تُعجبني قَط. كنتُ بائسًا بشدة، وانتظرتُ بقلقٍ تلك اللحظة التي يخبرون فيها إسحاق بما حدث، لكنه لم يكن موجودًا.

٨

دخل العمال المنزل ذات صباح مبكر، وكانوا يحملون الأسلاك والمسامير والمشابك، وراحوا يثقبون الحائط، كان غريبًا ذلك الغزو من العمال بمُعدَّاتهم، وبعد انتهائهم من عملهم لم نعُد في حاجة إلى مصابيح وفوانيس الكيروسين أو حتى إلى الشمعدان، أصبحنا نضغط على المفتاح فتضيء الحجرة وتتلألأ بالنور، وحين استهوَتْنا اللعبة أصدر إسحاق تعليماته بألَّا يقربَ أحدٌ من المفتاح إلا بأمرٍ منه أو من المسيحية المتوحشة، كانت التعليمات صارمةً لكنني كنتُ مدركًا أنه بعد وقتٍ قليلٍ ستصبح تلك الكرة المتوهِّجة ظاهرةً طبيعيةً رغم تظاهُر إسحاق بأنها نوعٌ من أنواع السحر.

كنا ننظر إلى المصباح المضيء باندهاش، ولما قرأ إسحاق تلك الدهشة المرتسمة فوق وجوهنا هبَّ واقفًا إلى جوار شيءٍ ملتصقٍ بالحائط ذي لونٍ أبيض وأسود، فانطفأ النور فجأة، مما أثار مزيدًا من دهشتنا، لكننا في النهاية شاهدناه وهو يضغط فوق ذلك الشيء الملتصق بالحائط.

قال إسحاق: إن هذا الضوء السحري باهظٌ جدًّا، إنه يكلِّف الكثير فيجب أن نستخدمه بحكمة.

راح العمال يثقبون الحائط مرةً أخرى، ورحنا نتساءل عن السحر الجديد، لم تكن ثمَّة مصابيحُ هذه المرة ولا مفاتيحُ إضافية للإضاءة، وإنما هو صندوقٌ خشبيٌّ كبير، جاءوا به إلى المنزل، كان يبدو وكأنه مصنوعٌ من الضفائر الحريرية الرفيعة، لكنه لم يكُن بأي حال شبيهًا بالجرامفون.

في أحد الأرفف المنخفضة من الدولاب وضعوا الصندوق الخشبي الكبير مكان الجرامفون القديم، ولم نعُد في حاجة إلى رفع اليد وتغيير الإبرة، كان كافيًا مع ذلك الصندوق أن ندير المفتاح يسارًا أو يمينًا لنستمع إلى الأصوات والأغاني، لكن ذلك لم يكُن

بمقدورنا أن نفعلَه طوال اليوم؛ فقد كان الإرسال يبدأ مبكرًا في الصباح بقولة: «في حماية الله أيها الملك، حفظك الله أيها الملك.»

ثم يواصل برامجه لفترةٍ قصيرةٍ تتخلَّلها بعض الأغاني والبرامج الغريبة قبل أن يتوقف بعض الوقت، ليبدأ مرةً ثانية في وقتٍ متأخر من بعد الظهر، إلى أن ينتهي ما بين العاشرة والحادية عشرة مساء بقولة: «في حماية الله أيها الملك، حفظك الله أيها الملك.»

أطلقنا على ذلك الصندوق العجيب اسم As'oromàgbèsí[1] وعند توصيله بالكهرباء كانت تصدُر منه الخشخشة.

كان التكهن بالأخبار عملًا صعبًا، فأصبحَت نشرة الأخبار بالنسبة لإسحاق وكثير من أصدقائه من الأشياء الهامة والمقدسة، كانوا يندفعون إلى منزلنا وكأن شيئًا ما قد أصابهم، فتبدو الصالة الكئيبة بوجودهم وكأنها مكانٌ للحج، ولم نكُن نحن الأطفال نجرؤ على الكلام أثناء سماعهم الأخبار، كانوا يستمعون بانتباهٍ شديد ووجوهٍ ذاهلة وكانوا يتنفَّسون بصعوبة، وبعد الانتهاء من سماع الأخبار كان يعتريهم القلق، ويتملَّكُهم الخوف، فيتوجَّهون بالفطرة وفعل التعوُّد إلى القس، كان إسحاق يتأمل لحظة ويفكِّر، ثم يعلِّق على الأخبار، فيشاركونه بأصواتٍ مليئة بالإثارة والتوجُّس.

تراكم التراب فوق الجرامفون، ولم يعُد أحدٌ يستخدمه، فاختفت معه أصوات «دينج»، «باكار»، «أمبروز وكامبل» وصوت الرجل الأسود «بول روبسن»، وكذلك أغنيات عيد الميلاد وأغاني «ماريان أندرسون» والأصوات الأوروبية وكورس «هاليلوجا»، وصرنا نتابع الغناء والأخبار والبرامج من الصندوق الجديد حتى سمعنا ذات مرة كورس «هاليلوجا» من الصندوق، فاتفقنا جميعًا على أنه أقوى وأجمل من صوته في الجرامفون القديم الذي لم ننجح قط في استرداده.

كان أفراد العائلة يتصارعون على الصندوق في كل صباح، وكان ذلك شيئًا مثيرًا، أما ضحكاتهم فكان يهتز لها الصندوق، حتى فكرنا أن نخرج به للشارع ليتصارع عليه الجميع، أو نضعه فوق شباك المنزل وهو مفتوح بأعلى صوته، آه لو أن كل العائلات التي نعرفها في «آكية» فعلَت نفس الشيء، كانت فكرةً مستحيلة، لكنني أدركتُ أن ما نفعله في الصباح من صراع لأجل الصندوق كان شبيهًا بالألعاب التي نمارسها أحيانًا في المدرسة في يوم توزيع الجوائز، ثم بدأتُ شيئًا فشيئًا أتعرَّف على كلامهم الغريب وأمزجتهم المختلفة.

[1] الشخص الذي يتحدث دون انتظار إجابة من أحد.

سيطرت أخبار الحرب على أحاديث إسحاق وأصدقائه، واحتلَّت مساحةً كبيرة في مناقشاتهم، كما احتكر هتلر أخبار الإذاعة، وكانت له برامجه الخاصة، وهو يقترب يومًا بعد يوم.

تم طلاء النوافذ باللون الأسود، مع ترك دوائر صغيرة جدًّا دون طلاء، حتى يتمكنوا من الرؤية ومشاهدة هتلر وهو قادم يسير بخطواتٍ واثقة في الطريق.

حلقت أول طائرة فوق «أبيوكوتا»، وكان أزيزها صاخبًا أفزع المسيحيين الذين سارعوا إلى الكنائس للصلاة، كانت الحرب والطائرات في اعتقادهم نوعًا من السخط الإلهي، لا ينفع فيه شيء سوى مزيد من الصلاة تجنبًا لسخط الإله، بينما أغلق آخرون أبوابهم ونوافذهم انتظارًا لنهاية العالم.

كان الأطفال يقفزون في الحقول والشوارع متطلعين إلى الطائرة المعجزة إلى أن تختفي تمامًا، وهم يهتفون ويلوِّحون لها.

أعلنَت الأخبار ذات صباح أن سفينةً بكامل طاقمها تحطَّمَت في ميناء لاجوس، وكان الانفجار ضخمًا اهتزت له الجزيرة كلها، فتناثرت الشبابيك وتساقطت الأسقف، كانت البحيرة مشتعلة باللهب وعلى حافتها احتشد أهل لاجوس مذعورين ومتعجبين من تلك الحرائق الضخمة المتأججة فوق سطح المياه، أوه، ها هو هتلر قد جاء، لقد اقترب هتلر ولم يعُد بمقدور أحد معرفة ما يفعل، لكن «باأداتان» كان يقضي اليوم كله منذ الصباح أمام دكان المسيحية المتوحشة حاملًا السيف القصير في الجراب المتدلي من خصره مع الحجاب، وكانت السكين فوق كوع ذراعه اليسرى وسلكٌ دائري وحلقاتٌ نحاسية بين أصابعه.

كانت الأحجية والتعاويذ داخل الجراب تؤكد له أن أي رصاصة قادمة في اتجاهه لا بد وأن تنعكس بعيدةً عنه عائدةً إلى الذي أطلقها عليه، إنه بطل «أداتان» الخالد، الذي إذا صفع الخصم بإحدى يدَيه، فلا بد أن يقع على الأرض فاقدًا الوعي، وكان يدَّخر يده الأخرى للمواقف المفاجئة.

كان «باأداتان» مكلفًا بحراسة منطقة «آفين»، وأصبح ثائرًا بشدة؛ لأنهم لم يأخذوه إلى الجيش كي يواجه هتلر، ويعمل على إنهاء الحرب مرة واحدة وإلى الأبد.

آه، ماما «وول»، هذا الشعب الإنجليزي الشاحب اللون، هل ترَيْن، ها هو هتلر يهاجمنا في لاجوس وأولئك الإنجليز لا يدافعون عنا.

صمت «باأداتان» برهة ثم راح يبصق بعصير الكولا على الأرض في غيظ وهو يستطرد: ماما، سأكون جثة بجوار حائط قصر «ديس» بينما سيقولون: «هناك يُوجد رجل أسود.»

ظل يفتش باهتمام في جيوب ملابسه ثم قال لأمي: أوه، ماما «وول»، نسيتُ أن أُحضِر كيسَ نقودي، انظري، رجلٌ كبير مثلي ينسى نقوده في المنزل!

سحب «باأداتان» سيفه، ورسم خطًّا على الأرض أمام الدكان، وقال: إذا حاولوا اجتياز هذا الخط، فإن البنادق سوف تنسِفُهم.

تعقبتُه ذات مرة بينما كان ذاهبًا لتناول إفطاره، وكانت بائعة الطعام تعرف ما يريد فوضعَت أمامه أربعًا من أوراق الإيبا الكبيرة الملفوفة وبعضًا من الخضار وقطعة لحم واحدة كانت تبدو وسط الخضار كأنها غارقة في محيط، ترك قطعة اللحم دون أن يلمسها حتى التهم كمية الإيبا الضخمة، التي كانت اللقمة الواحدة منها أكبر كثيرًا من أي شيء أستطيع تناوله في وجبةٍ واحدة.

تلعثم «باأداتان» وتنحنح، لكن المرأة لم تهتم.

– هاآآم، «إياوو».

– هدوء.

– «إياوو».

قالت بائعة الطعام بغضب: أتريد أن تُخرب بيتي، كل يوم تفعل نفس الشيء، إذا فعل كل واحد مثلك فكيف أستطيع العيش؟

– أوه، «إياوو»، أنا لا أقصد مضايقتك.

اعتدلَت في جلستها من فوق الكرسي، وملأت المغرفة التي صبَّت محتوياتها في طبقه، وقالت: لكيلا تشكو. هكذا كل يوم، نفس الشيء.

– باركك الله، باركك الله، إنه هتلر ابن «...» بعد انتهاء الحرب سوف ترَيْن، ستعرفينني رجلًا كما يجب.

كانت المرأة معتادةً على سماع تلك الوعود فلم تقل شيئًا، وانصرفَت إلى شئونها بينما راح «باأداتان» يلتهم بقية الإيبا، ويقذف بقطعة اللحم إلى فمه مثل الكلب الذي يهجم على اللحم وسط كومة من القمامة، وكانت عضلات رقبته وفكِّه مشدودة وبارزة وهو يمضغ اللحم ويضرب فوق المائدة المنخفضة، قائلًا بنوعٍ من التحدي دعيه يأتي، فليخطُ أي خطوة بالقرب من قصر «آلاك» حتى أحطِّم رأسه وأضربه ضربًا شديدًا.

نهض من مكانه وهو يسوِّي من ربطة الحبل حول البنطلون، وقال: إذا جاء رجلٌ من رجال هتلر بالقرب منك فلتخبريه أن «باأداتان» هو الذي يتحدث.

ثم رفع رأسه إلى أعلى فاردًا قامته وصدره إلى الأمام، وراح يستأنف دوريته.

توقفَت سيارةٌ مسلحةٌ كبيرة في الطريق ذات يومٍ أمام صفٍّ المحلات الذي يُوجَد به محلنا، فتفرَّق الأطفال والنساء في كل الاتجاهات وتملَّكَهم الذعر، تقهقَر الرجال وراحوا ينظرون من خلال أبواب دكاكينهم وهم متأهبون للجري أو التوسل من أجل حياتهم، لم يكن أولئك الجنود هم الذين يقيمون في معسكرات «لافينوا»، لكنهم كانوا من «البوت» السيِّئي السمعة، وكان من اليسير التعرُّف عليهم من الكابات فوق رءوسهم، قالوا إنهم جاءوا من الكونجو، وإنهم متوحشون يأخذون ما يحتاجونه من المحال التجارية دون أن يدفعوا شيئًا، ويغتصبون النساء والأطفال، وكانت دعوة الرجل بأنه «بوت» تُعَد إهانةً كبيرة، كما كان انتظارهم دون الجري منهم يُعَد حماقةً هائلة.

كنتُ في الدكان مع المسيحية المتوحشة التي لم تهتم بأولئك الجنود ولا بالسمعة السيئة التي يتصفون بها، ولم تفعل مثلما حدث مع بقية المحال المجاورة التي أغلقَت أبوابها وفرَّ أصحابها هاربين.

طلبوا شراء البسكوت والسجائر والطعام المجفَّف وعُلَب الحلوى والمشروبات، فتسلقت الأرفف لإحضار العُلَب وإعطائها لأمي، لكنني فجأة سمعتُ صوتًا كزئير الأسد.

كان «بالأداتان» بين الفراغ الذي يتوسط رءوس الجنود والباب الفسيح، وكان عاريًا حتى خصره والبنطلون مشدودًا ومربوطًا في حزامه، أما وجهه فكانت تكسوه تعبيرات الموت، أمسكتُ بيدي السيف وSere[٢] باليد الأخرى، وأزحتهم في حركةٍ دائرية إلى حيث كان يتمتم.

حدَّق الجنود بعضهم في بعض، وكانت المسيحية المتوحشة تستمع وقد تعرفت على سبب الاضطراب غير أنها لم تهتم، بينما راح «بالأداتان» يلعنهم قائلًا: أولاد الكلب، كذابون، حيوانات، بهائم، بدون وطن. لم يفهم الجنود أي كلمة، وكانوا يتهامسون بلغتهم الغريبة وهم يرفعون حواجبهم ويهزون أكتافهم، ثم عادوا يواصلون شراء حاجياتهم، كان ثلاثة منهم أو أربعة يجلسون فوق الرصيف المواجه للدكان يراقبون، وبقيتهم يحتشدون أمام الدكان، فلم تستطع المسيحية المتوحشة أن ترى «بالأداتان» فأصابها القلق، وسألتني عما يحدث.

قلتُ: إنه يرقص الآن.

---

[٢] Sere: زجاجة صغيرة ذات قوة سحرية. (المترجم)

كان يرقصُ رقصة الحرب ويُغنِّي بأعلى صوته:

Ogun Hitila b’ AKE
Eni La o pa Bote[٣]

ظل بعض الجنود يراقبونه بينما كان البعض الآخر يواصل الشراء، فانتهزَت أمي الفرصة، وضاعفَت السعر، لكنهم لم يبالوا، وقدَّموا لي عُلبة بسكوت رقيقة وحلوة، كنا نتحدث بلغة الإشارات ونبتسم ونحن نهز أكتافنا أو نلوِّح بأيادينا، ولم نجد أي متاعب في التعامل معهم حتى بدءوا في الرحيل، وعندئذٍ توقف «باأداتان» عن الغناء ورسم خطًّا على الأرض متحديًا إياهم أن يتخطَّوه ... قفز مندفعًا بوحشية نحو الخط رافعًا سيفه، ثم توقف فجأة فوق إحدى نقاط الخط بقدمٍ واحدة وهو يدور بجسده حتى يعود إلى النقطة التي بدأ منها، كرَّر تلك الحركة مراتٍ ومراتٍ فارتبك الجنود، ولم يعرفوا ما يجب أن يفعلوه مع هذا الرجل.

قبل أن يُطيلوا التفكير اندفعَت المسيحية المتوحشة من مكانها وقالت باحتجاج: كفى يا ... كفى، إنهم أصدقاؤنا وأنت تعوقُهم الآن عن الذهاب لمحاربة هتلر.

أجاب «باأداتان»: إنهم «بوت»، إنهم وهتلر نفس الشيء، انظري إليهم، إنهم جبناء.

ثم رفع Sere في وجوههم قائلًا: ضعوا هذه البضائع على الأرض وسأعطيكم رسالةً إلى هتلر.

زحف اثنان من الجنود خلفه، وقيَّدا ذراعَيه بعد أن جرَّداه من السيف والـ Sere لكنه ظل يقاوم بشراسة، ولم يكن من السهل الإمساك به، فجلس الجنود يلتقطون أنفاسهم، ويمسحون العرق المتدفق من أثر المقاومة وهم يلعنون لغتهم الغريبة، ثم أحضروا بعضَ الحبال وقيَّدوه بها لكنه لم يستسلم ... وقفوا على شكل دائرة يمسحون العَرق دون أن يتوقفوا عن التطلع إليه وإلى تلك الوجوه التي ظهرَت واحدًا تلو الآخر من الدكاكين والنوافذ والأركان والمخابئ، أصابتهم الدهشة مما يشاهدون ومن المقاومة الشرسة لـ «باأداتان» ولم يستطيعوا التحدث إليهم، غير أن بعضًا منهم كان يومئ برأسه في حزم.

---

[٣] حرب هتلر تصل إلى آكية.
واليوم سوف نقتل هؤلاء البوت.

كان «باأداتان» مقيدًا يحاول أن يجلس بطريقةٍ مناسبة حين رمق أحدهم وهو يهزُّ رأسه.

قال شخصٌ ما: يا له من مسكين! إن مجد «إيجبالاند» يرقد في الأرض غارقًا في التراب.

اندفع بعض «الأوجبوني» قادمين من القصر بعد سماعهم بالحادث، وببعض الإشارات والإيماءات نسبوا مسئولية ما حدث إلى أنفسهم، ثم قدموا إلى «باأداتان» سيفه والـ Sere وقفزوا إلى عرباتهم فراح الجميع يتساءل: هل سيستدعونه في البوليس؟ هل من الصواب أن نفُك «باأداتان» من قيده؟ هل سيُلقون به في مستشفى الأمراض العقلية في «آرو»؟

أغلقَت المسيحية المتوحشة دكانها وهي تناديني كي نفُك الحبال عن جسد «باأداتان»، وعندما شرعنا في فكِّه علَت بعضُ الأصوات صارخةً من الفزع، ولم يوافقوا على ما نفعل، لكننا كنا نواصل عملنا دون أن نهتم بصيحاتهم، فحاول أحد الرجال أن يمنع المسيحية المتوحشة التي انتصبَت واقفة وشدَّت جسدها إلى نهايته، وقامت بتحذيره من أن يلمسها مرةً أخرى.

وقفتُ بدوري إلى جانبها منتصبًا وأنا أسخر من الرجل، وكنتُ أعرف لو أنني سخرتُ منه في ظروفٍ أخرى لكانت صفعَتْني أمي بشدة فوق وجهي، لكنها في هذه المرة لم تفعل، ثم تدخَّل رئيس «الأجبوني»، وكلَّف الرجل بفك الحبل ليصبح «باأداتان» حرًّا.

نهض «باأداتان» ببطء، فتقهقر الجميع عدة خطوات إلى الوراء، تناول السيف ووضعه في الجراب، ثم قذف بالـ Sere إلى الأرض فأحدثَت انفجارًا هائلًا أفزع المشاهدين، وراح يبتعد عن المكان وهو يمشي بكبرياء لكن وجهه كان حزينًا، كان متجهًا صوب «إيبورو»، ثم اختفى شيئًا فشيئًا، وتلاشى عن الأنظار.

لم أشاهد «باأداتان» بعد ذلك أبدًا.

كان لا بد للأم أن تفعل شيئًا حيال شرود إسحاق المتصاعد، فاختارت أن تبقَى في دكانها معظم الوقت هربًا من إسحاق الشارد، وكانت تلك فرصةً مناسبة يحتمي فيها بأصدقائه، كانت قبل أن تذهبَ إلى الدكان تتأكد من إعداد إفطار زوجها من «الأكارا» و«الأوجي» والخبز والبيض والشاي أو البطاطا المغلية والبيض أو شوربة السمك فوق المائدة، لكنها نادرًا ما كانت تقوم بإعداد طعام «ليكي» الشهي والمصنوع من قشرة الخبز والفول وبذرة البطيخ؛ لأن ملعقةً واحدةً منه كانت كافيةً لنشوب النزاع بين أفراد العائلة.

انضم الشاب «مايسلف» إلى أفراد العائلة؛ حيث ظهَر فجأة مِن حيث لا ندري، وأصبح يشاركنا حياتنا، ثم اختفى فجأة أيضًا دون تفسير من أحد، كنتُ أراقبه من بين الأرجل

متطلعًا إلى طبقه الذي يكون عادةً فارغًا، تعوَّدنا جميعًا على لهجته الفريدة، وأصبح مصدر تسلية لنا، وعندما كان يراني أنظر من بين أقدام الولد الطويل إلى حركات فكِّه كان الخوف ينتابه، خاصةً لو كان الطبق محتويًا على طعام «ليكي».

كانت «تيني» وأنا وأولاد العم و«ديبو» نتسابق لنيل شرف إفزاعه بسؤالنا المعتاد: هل تناولتَ إفطارك؟

كان قصيرًا وذا بشرةٍ مضيئة يجلس فوق الكرسي تحت ساعة الحائط في الحجرة الأمامية وهو يقرأ في مجلة أو كتابًا في انتظار عودة إسحاق من المدرسة لتناول إفطاره، وعندما تكون أمي خارج المدينة كان يصل مبكرًا عن العادة أثناء قيام أبي بتدريباته في الحجرة، وكنا نُخفي ضحكاتنا عن الناظر لمعرفتنا بعاقبة الضحك على الضيف، لكننا بعد ذلك بالطبع كنا نقلد الضيف على الملأ.

كان أبي عند خروجه من حجرة نومه أو انتهائه من الحمَّام أو بعد تجواله في الحديقة، وأحيانًا بعد عودته من المدرسة، يتقدم نحو الضيف، ويقدِّم له التحيات بلطف ورقَّة ثم يذهب لشئونه، أما في وقت الإجازات فكان الوقت كافيًا كي يجلس وقتًا طويلًا فوق مكتبه في الحجرة الأمامية لإنهاء بعض الأعمال قبل أن ينهض للإفطار الذي يصبح باردًا، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يتبادل الحديث مع ضيفه بهدوء وهم يتحاورون في أمور السياسة اليومية، ويتناقلون الأخبار والإشاعات عن الحرب وبعض التحركات المحلية بينما نكون نحن في انتظارهم نُحس ملل الانتظار، فيذهب أحدنا لإخبار إسحاق أن إفطاره جاهز أو لسؤاله إذا كان يريد إعادة تسخين الـ «أوجي» أو الفول، وعندئذٍ كان يتوجه إلى ضيفه بالسؤال: هل تناولتَ إفطارك؟ فيرفع «مايسلف» وجهه من الجريدة التي يشغل نفسه بها، وينظر إلى أعلى في خوفٍ متطلعًا إلى أي اتجاه، ما عدا الاتجاه الصادر منه السؤال، ثم يتجه إلى إسحاق متسائلًا إذا كان السؤال موجهًا إليه راسمًا على وجهه علامات الدهشة وهو يجيب: أوه، أنت تعني «مايسلف»؟ كانت إجابته متقطعة وغير واضحة رغم كل المبالغة التي حاول بها نطق الحروف، وكانت كلماتُه مثل مُواء قطتنا، مما جعلنا نضحك كثيرًا ونحن نداري وجوهنا في مساند الكراسي التي نختفي وراءها.

وقف إسحاق متأملًا إياه، وسار كلاهما بوقارٍ إلى حجرة الطعام، ثم جلسوا بتأنق واحترام فوق المائدة، فكان ذلك شيئًا سيئًا بالنسبة لشهيتنا المفتوحة.

أنت تعني «مايسلف»، ظَلِلنا نضحك لهذه العبارة كثيرًا كلما تذكَّرناها من حينٍ لآخر، وكانت المسيحية المتوحشة تقابله في جولاتها الشرائية خارج المدينة، وظلت ملامحه عالقة

بأذهاننا، وكثيرًا ما كنا نقلده، فنتحدث مثلما كان يتحدث، أو نأكل ونقرأ الجريدة مثلما كان يفعل، حتى إن أمي كانت تستدعي إسحاق لرؤيتنا، ولم تعُد تهتم بما نفعل؛ فإن لحظات من القلق والانزعاج كانت تنتابها من ذلك الروتين اليومي.

قالت ذات يومٍ أثناء وجبة العشاء: هل كان طعام «ليكي» جيدًا هذا الصباح؟

كان الضيف في ذلك الصباح قد التهم «ليكي» عن آخره.

قال إسحاق: أوه، هل يُوجد «ليكي» اليوم؟ فلتُجهِّزوا شيئًا لأنني سأعود للمدرسة حالًا.

تظاهرَت ماما بالدهشة قائلة: يا لهم من أغبياء! إن طعام «ليكي» موجود طوال الوقت.

وقالت لجوزيف: أين الإفطار الذي أعددتُه لوالدك؟ إنني لا أراه فوق المائدة، أين هو؟

ظل الولد يُتمتِم فقالت «نوبي»: لقد وضعناه فوق المائدة يا ماما، لكن ضيف بابا تناوله عن آخره.

أدارت عينَيها في كل الاتجاهات وقالت: أوه، سأقوم بتجهيز المزيد.

– لا بأس، إنني لستُ جائعًا، عندما أعود، عندما أعود.

ثم ذهب إلى المدرسة، وأثناء العشاء استطردَت المسيحية المتوحشة قائلة: من هو يا عزيزتي؟ هل أعرفه؟

– أوه عزيزتي، صديقٌ قديم أشُك أنكِ شاهدتِه من قبلُ.

هزَّت رأسها قائلة: لا بد أنه صديقٌ غريبٌ جدًّا، هل تعرف ماذا يعني أن يأكل الصديق إفطارك كله دون أن يترك شيئًا؟

هزَّ إسحاق كتفَيه: لقد أعدَّ الأولاد لي طعامًا آخر، لا يهم.

كانت المسيحية المتوحشة تتمتع بقَدْرٍ كبير من الذكاء والمكر والحيلة، فتعمَّدَت تأجيل المناقشة في ذلك الموضوع بعد أن أبدت ملاحظةً واحدة، ورأت أن تتوقف حتى تكون مستعدةً للكلام عن ذلك الصديق الطائش، الذي أصبح شيئًا أساسيًّا في حياتنا أثناء إجازة نصف العام، كانت الأمطار المستمرة على مدى أسبوعَين دون توقف قد ساعدَتْه في البقاء طوال اليوم، بالإضافة إلى عدم رغبته في المغادرة.

تعلمنا من وجود «مايسلف» الشراهة والنهَم، وأثناء وجوده كانت المسيحية المتوحشة تُشفِق على إسحاق من قلة أكله وكثرة الاحتفاء بأصدقائه وضيوفه، حتى حدَّقَت فيه ذات يومٍ وقالت له: ولكن يا عزيزي هل تتعاطى كفايتك من الطعام؟

– طبعًا، هل أبدو جائعًا؟

– لا، ولكن، أريد أن أصنع لك غدًا فتة البطاطا التي تُحبها، ما رأيك يا عزيزي؟

– أي نوع من الطعام ذلك الذي تتحدثين عنه؟

– ذلك الذي يُصنع من الأورو، وطبعًا سوف أستخدم لحم الخنزير المشوي الذي أرسلَه لنا الأب من «إيسارا».

– أوه، نعم، نعم.

– أريد التأكد من أنك تتعاطى كفايتَك من الطعام.

– طبعًا، ولِمَ لا؟ إنني موجودٌ غدًا، ولن أذهب إلى أي مكان، إذن هي فكرةٌ طيبة.

ساد السكون فترةً قصيرة، ثم تحرَّكَت بجواره قائلة: وهل تتوقَّع أحدًا من الزائرين غدًا على الغداء؟

قال لها: لا، لا، ولكن ربما يأتي السيد «أديلو»، لا، لا أتوقع أحدًا.

– حسنًا، لكن إذا حضر أحدٌ وقت الغداء فعليك أن ترسل أحدًا لاستدعائي من الدكان، أعني أنه يمكنك تأجيل هذا الطعام إلى المساء إذا جاء أحد؛ فلقد صنعتُه خصوصًا، ثم إنه خنزير الأب المشوي من «إيسارا».

– نعم، أفهم تمامًا، كما تُحبين.

فور وصول «مايسلف» أسرعَت «نوبي» بتنفيذ خطتها المتفق عليها مع المسيحية المتوحشة، فراحت تُخبرها بوصوله، وبقيَت مكانها في الدكان ... كنا في ذلك اليوم ننتظر بشغف في الحجرة الأمامية متظاهرين بالمذاكرة دون أن نقلب صفحةً واحدة من الكتاب، حتى جاءت أمي فقفز «مايسلف» من فوق الكرسي، وانحنى يقبِّل يدَيها بلطفٍ مُبالَغ فيه، ثم قال: صباح الخير مدام.

بادلَته ابتسامةً صغيرة كنوعٍ من المجاملة بينما كان إسحاق في الجانب الآخر من المائدة يخنق ابتسامته، وقد كان يعرف ما يتعلق بالخطة دون أن يخبره أحد، كما عرفنا بالتخمين أنه سيترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي.

قالت أمي: فكَّرتُ أن أحضُر وأرى طعامك بنفسي خوفًا من أولئك الأولاد الذين لا يتورَّعون عن التهام كل شيء، فلا تجد هذا الطعام الطيب والمصنوع خصوصًا لك.

– ولكن، الدكان؟

– أوه، لا تقلق، «نوبي» هناك تقوم بعملها، كما أن المطر اليوم غزير، والشراء متوقف.

ظل وجه «مايسلف» مدفونًا في الكتاب، ورحنا نتهامس من تحت المائدة: ماذا تنوي أن تفعل؟ وما هي خطتها؟

تسلَّلَت إلى أنوفنا رائحةُ الطعام، وكنا نشُك كثيرًا في تذوُّق هذا الطعام، انحنَت رءوسنا إلى أسفل متطلعين إلى الرجل المسكين، ثم سمعنا صوتًا ينادي من المطبخ: «وول»، وول ل ل.

ضربَني أحدهم بكوعه كي ينبِّهَني، وقالوا جميعًا: إنه أنت، ألا تسمع؟

– نعم، ماما.

– اذهب واسأل الرجل اللطيف هل يُفضِّل كوبًا من الزنجبيل أم عصير البرتقال؟

فعلتُ ما أمرَتْني به، وكانت دهشتُه عظيمة حين قال: «مايسلف»؟ أوه، لا يهم، أي شيء، شكرًا.

اختارت المسيحية المتوحشة بنفسها، وناولَتني الصينية ثم تبعَتني، كان «مايسلف» متوترًا وأنا أضع الصينية أمامه فوق المائدة.

قال «مايسلف»: أوه مدام، كرمٌ منك يا سيدتي، كرمٌ شديد، وعليكِ أن تساعديني في التوجه بالشكر إلى الناظر أيضًا، إن السيد «سوينكا» مضيافٌ كبير ورجلٌ لطيف إلى أبعد حد.

– أوه، ولكنني يجب ... يجب ... إنها روحٌ طيبة جدًّا، وشيءٌ نادر جدًّا.

تبادلَت معه الحديث لمدة خمس دقائق بسرور وابتهاج، ثم قاطعَتْه: أتمنَّى أن تلتمس له العذر لفترةٍ قصيرة.

– طبعًا مدام، طبعًا.

– إن عليه اليوم أن يناقش بعض المسائل العائلية الهامة.

– أووووه، أووه.

ابتسمَت قائلة: مشاكل عائلية!

ثم قالت لإسحاق: عزيزي، أعرف أنك مشغولٌ اليوم، لكننا نستطيع مناقشة بعض الأمور أثناء الغداء.

عُدتُ إلى مقعدي، وراح ابن عمي يكتب في كراسته ١٠/١٠، كانت هي درجة إتقانها للدور، فوافقنا جميعًا على تلك الدرجة، فقدَّم «مايسلف» مزيدًا من الشكر، وأثنى على كرم الضيافة الذي لاقاه، ثم اختفى من حياتنا تمامًا، وأصبح المنزل فقيرًا بغيابه.

شاهدنا رجلًا يرتدي زي الضباط وهو يدخل المنزل دون أن يعلن عن وجوده، فسارعنا بالفرار، ها هو هتلر يأتي إلينا، وسوف ينقلنا جميعًا فوق ظهر السفينة ويحوِّلنا إلى عبيد، كان إسحاق مسافرًا خارج المدينة والمسيحية المتوحشة في دكانها، ولم نكُن قد علمنا بقدوم زائرٍ جديد، هربنا جميعًا إلى الفِناء الخلفي، واختبأ بعضنا في المخزن والبعض

الآخر في المرحاض، وتسلَّقتُ أنا واثنان من أبناء العم السلَّم، وألقَيْنا بأنفسنا فوق السطح استعدادًا للنزول إلى الشارع من الناحية الأخرى إذا تعقَّبَنا هتلر فوق السطح، ظلِلْنا هكذا لا نفعل شيئًا سوى أننا زحفنا على بطوننا إلى الجانب الآخر من السطح حتى نتمكَّن من رؤية الفِناء.

ظل الرجلُ الغريبُ في مكانه دون أن يتعقَّبنا، وبدا كأنه يلوِّح لشيءٍ ما، وكانت عيناه متوقدتَين ووجهه متأججًا فبدأتُ أغيِّر انطباعي عنه؛ إذ لم يكن مظهره يوحي بالعنف، لكنني فكَّرتُ قائلًا: ربما يكون شبحًا!

رفع رأسه وتقدَّم إلى الأمام وإلى الخلف، ثم قال بصوتٍ عالٍ: أين هؤلاء الأوغاد؟

تقدَّم الرجل الغريب للأمام، وكانت الحجراتُ خاليةً من الجميع، كنا قد رأينا بعضَ السُّكارى من قبلُ فعرفنا أنه مخمورٌ بما فيه الكفاية، حتى لو كان هو هتلر أو شبحًا أو الشر نفسه.

تحرَّك مرةً أخرى للأمام في اتجاه الفِناء، وكانت عيناه تُحدِّقان في أحد أواني المياه الضخمة الخاصة بنا، التي كانت مدفونةً في الأرض، كان الإناء المفضَّل في البيت محاطًا بالكروتون الفخم من جانَبيه، وكانت مياه ذلك الإناء مثلَّجة وطازجة في أي وقتٍ من النهار، اتجه الغريب ناحيته ثم مال وهو يفُك أزراره، وراح يبول فيه.

صرختُ بأعلى صوتي، ونزلنا السلَّم بنفس السرعة التي تسلَّقناه بها ونحن نتوجَّه إليه بالشتائم، ثم رحنا نشُده بكل قوَّتنا، لكنه ضربَنا بيده بسهولة وهو يقول: ابتعِدوا عن طريقي.

قفَزتُ فوق ظهره بقوة جعلَته ينحني للأمام، وضربتُه بغطاء إناء الماء الذي كان مليئًا إلى نصفه، ثم قفزتُ فوق رأسه بنفس الحركة، فوقعتُ فوق كومة من التراب، ووجدتُ نفسي محصورًا بين الإناء والحائط، لكن أولاد العم أمسكوا به من إحدى قدمَيْه، وجَرجَروه إلى الخلف طالبين المساعدة.

ظهر بقية الأطفال من مخابئهم في نفس اللحظة التي جاء فيها، فشاهدوا الرجل بزيه الرسمي منبطحًا فوق إناء الماء.

زحفتُ من موقعي، وصرختُ بأعلى صوتي: إنه هتلر، هتلر يبول في الإناء!

لكن هتلر لم يتحرَّك من مكانه، وظل ساكنًا حتى اقترب الجيران وأحاطوا به.

كان شخصٌ ما قد استدعى ماما التي جاءت من الدكان، وتعرَّفَت بسرعة على الغريب ثم صاحت: كنتُ أعتقد أنه ما زال في بورما.

ساعده الجيران في الذهاب إلى السرير، وكان ينظر إلينا بحب.

سألنا المسيحيةَ المتوحشةَ أثناء العَشَاء عن ذلك الغريب، فهزَّت رأسها، ورفضَت في البداية أن تُجيبَ على تساؤلاتنا حتى قالت: إنه عمُّكم، كان دائمًا يبدو متوحشًا، وقد تمرَّد على العائلة منذ زمنٍ بعيد، فذهب وتطوَّع في الجيش.

كان العم «ديبو» في الصباح نظيفًا ومتأنقًا يرتدي ثيابًا حضارية، وكان يتناول إفطاره وهو جالسٌ فوق مقعد إسحاق، وبعد عودتنا من المدرسة كان العم قد ذهب.

توجَّهنا بأسئلةٍ كثيرة إلى أمي، لكنها لم تقُل شيئًا سوى أنه ذهب إلى موقعٍ جديد.

تم تنظيف إناء الماء بالديتول، لكنَّ أحدًا لم يستخدمه لعدة أيام إلى أن قاموا بتنظيفه مرةً أخرى من الداخل والخارج بالصابون، ووضعوه في مكانه، لكنني لم أَعُد أشرب منه بعد ذلك دون إحساسٍ بالقرف.

كان أخي الصغير «ديبو» لا يتوقف عن شقاوته، ولا يخاف شيئًا، وذات يوم اختفى «ديبو» مدةً طويلة، كانوا في المنزل يتوقَّعون وجوده في الدكان، ولم تكن المسيحية المتوحشة تشُك في وجوده بالمنزل.

اختفى «ديبو» بعد الإفطار مباشرةً بعد أن تلقَّى بعض الضربات والإهانات من بابا، فاضطرب أهل المنزل حتى جاء به أحد المسافرين ... كان «ديبو» يهيم على وجهه طوال النهار متجولًا في «أبيوكوتا» حتى قادته قدماه إلى الجراج، وعندما حاول أن يصعد اللوري لاحظه السائق والمسافرون، واستجوبه رجل البوليس الذي تركه عند أقرب دكان حتى جاء به مسافرٌ لطيفٌ إلى المنزل.

لم نعرف شيئًا عما فعله إسحاق وماما بشأن تلك المغامرة ... أصبح «ديبو» بطلًا، ولم يكن خائفًا عند عودته حتى إنني أنا الذي خفتُ منه؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يغامر بمثل هذه المغامرة دون أن يُصاب بالذعر، تعجَّبتُ من ماما وإسحاق؛ لأنهما لم يستخدما العصا لمثل تلك المعصية التي ارتكبها «ديبو».

كان «ديبو» في اليوم التالي يقفز ويلهو بحرية كاملة وكأن شيئًا لم يحدث أبدًا، ولم تكن تصرفاتُه توحي بأي شيء من مغامرة الأمس، فصرنا ننظر إليه كشخصٍ متميز ومختلف عنا.

بعد عام تقريبًا من زيارة العم الغامض أعلنَت المسيحية المتوحشة عن تغيير اسم «ديبو» إلى «ييمي» وقالت: إنني أفكِّر في تغيير اسمه منذ زمان؛ لأن الأطفال الذين يحملون اسم «ديبو» يصبحون متوحشين.

لم نهتمَّ لتغيير الاسم غير أنني أخفيتُ دهشتي، وفكَّرتُ قائلًا: إن أولئك الكبار لا يعرفون أبدًا ما يريدون.

كان العم «ديبو» أحد الزائرين الذين اخترقوا حياتَنا ذات يومٍ، ولستُ أدري لماذا كانت المسيحية المتوحشة متحفظة وهادئة بشأن ذلك العم الذي رحل، ولم نشاهده مرةً ثانية.

كان العم «ديبو» قد أمضى معنا ليلةً واحدةً فقط.

كان العم «ديبو» كالمفاجأة، كالزوبعة.

٩

كنا نحن أبناء الناظر نقوم في ليلة رأس السنة بزيارة ذوي الشأن، ودائمًا كان شخصٌ ما برفقتنا للعمل على رعايتنا، وكنا نلتقي في الطريق بالأقرباء وأصدقاء العائلة وبعض كبار «إيسارا» من الرؤساء ومساعدي الملك والقساوسة، وكان معروفًا في «إيسارا» أن أبناء الناظر وأطفاله لا ينحنون عند تقديم التحية.

قال أحد الرجال معلنًا عن وجودنا: «أطفال آيو».

وبعد أن سمعنا اسم إسحاق أصبحنا جميعًا في مكانٍ واحد، وقال أكبرنا: «أطفال آيو» جاءوا للاحتفال بـ... «أودون».

ثم استطرد: إنهم لا يُجيدون الانحناء وتقديم التحية، معذرةً سادتي أرجوكم ألا تنزعجوا وألا تسيئوا إليهم.

كانت ردود الأفعال مختلفة؛ فأحس بعضهم بالفزع لكون ذلك ضد تقاليدهم وعبَّروا عن استنكارهم، أما البعض الآخر وخاصة أولئك القدامى الذين يرتدون etù[1] الأسود، فقد انتصبوا واقفين، ومضَوا يتمتمون، وكان بينهم «أوديمو» الرجل الكبير في «إيسارا».

بعد الانتهاء من صلاة أحد أيام الآحاد في الكنيسة ذهبتُ أنا وإسحاق مباشرة إلى قصر «أوديمو»؛ حيث كان عددٌ من المسئولين يجلسون في الردهة، تفحصتُ وجوههم بعض الوقت؛ فلم أكن قد رأيتُ أحدًا منهم من قبل، وبخاصة ذلك الرجل الموشَّح بالخرز والمرجان الغريب الذي لا يُوجَد في «إيسارا»، كان يتحدث إليهم بكبرياء وكأنه «أوديمو».

---

[1] ملابس محلية من النسيج ذات قيمة كبيرة.

رفعني «أوديمو» فوق ركبته قائلًا: A-ah Omo Soyinka, Wa nube wa gobwo[٢] وراح يسألني أسئلةً كثيرةً عن المدرسة، فانطلقَت مني الصرخات، ثم أمسكَني «كابينزي» ووضعَني على الأرض، صافحتُ الحاضرين وكان بينهم رجلٌ طويلٌ ذو ملامح ملكية واقف إلى جوار الدولاب يلوِّح فوق وجهه بالمروحة في كسل، اقتربتُ منه فنظر إليَّ بغرور، وأعلن بصوتٍ صارخ: ما هذا؟ Omo.[٣]

أصابني الخوف فتقهقرتُ إلى الوراء بينما أجاب كثيرون بصوتٍ عالٍ: إنه ابن سوينكا.

وكانوا يُشيرون إلى أبي المشغول في حديثٍ خاص مع «أوديمو» قائلين للرجل الطويل: إنهم أطفال الناظر الذين لا يُجيدون الانحناء!

اشتعلَت عينا الغريب وتلألأتا، حدَّق في إسحاق والمسئولين والرؤساء، ولاحق «أوديمو» بنظراته، ثم قال صارخًا وهو يفحصني: ولم لا؟

كان صوته مدويًا، وكان الرعب يتملكني لمجرد وجوده، شعرتُ بغيظ واستياء شديدَين لوجوده في ذلك المكان، خاصة وأن نظراته لإسحاق كانت مليئة بالعداء، وكانت هي المرة الأولى التي أمرني فيها أحدٌ بالانحناء، إن تقديم التحية بالانحناء في طرق «إيسارا» المكدسة بالأتربة الحمراء ومخلفات الكلاب وبراز الأطفال يبدو شيئًا قذرًا، لا، لن أفعل، رغم إدراكي بوجوب ذلك على الأقل لأبي أو لأوديمو أو بعض الكبار الموجودين في ضيافته.

لا، لن أنحني لذلك الغريب المتعجرف حتى لو أصاب إسحاق أو المسيحية المتوحشة مسٌّ من الجنون، وأجبراني على ذلك، فإنني أيضًا لن أفعل.

كان قدومنا المباشر من الصلاة في الكنيسة هو ما جعلَني أفكر بما يدور في رأسي، ولم يكن ثمَّة تبرير قد فكرتُ فيه من قبلُ، وإنما فقط كنتُ أستمع لنفسي: «إذا كنتُ لم أقدِّم الانحناء إلى الله فلماذا إذن يجب أن أنحني لذلك الغريب؟»

ساد الهدوء فترةً طويلة، ذلك الهدوء الذي لم أتعوَّده في مجالس الكبار، ثم ما لبث «أوديمو» أن كسر الهدوء والصمت بإطلاق صفارة توحي بالدهشة قائلًا: أوه ... أو ... أو ... و... و... وبابا أو!

ثم قال لإسحاق: Emi su wo re ko؟[٤]

---

[٢] آه، ابن سوينكا، تعالَ وصافحني.

[٣] طفل مَن هذا؟

[٤] باسمِ أجدادنا، هل أنتَ الذي علَّمه هذا؟

هزَّ أبي رأسه، وأشار بيدَيه علامة النفي، لكن صوت «أوديمو» جعلَني أنظر إليه، ثم إلى تلك الوجوه المصابة بالدهشة، وفجأة أصابني الاضطراب، فتسلَّلتُ من الحجرة، وجريتُ طوال الطريق إلى المنزل.

بعد ذلك الحدث أصدر إسحاق أمرًا بوجوب الانحناء ليس فقط في «إيسارا»، وإنما أيضًا في «آكية» وفي منزلنا.

– كان «أوديمو» بالنسبة لنا هو صديق إسحاق الأول، وكثيرًا ما كان يأتي لزيارتنا في «آكية» ويمكث مدةً طويلة كانت تبدو مثيرة، ولم يكن إسحاق معه يملك وقتًا لمتابعتنا، فكنا نمارس كامل حريتنا، أما «داودو» فلم يكن يبقى وقتًا طويلًا، غير أنه كان يترك إسحاق مشتَّت التفكير.

كانت النسوة التاجرات اللاتي يُحضِرن التوابل والمسك من «إيسارا» إلى «آكية» يصلن دائمًا في وقتٍ متأخر من الليل وهن يمشين في أسراب كالقافلة محملات بسلال مليئة باللحوم المشوية وحقائب من القماش مكدَّسة بملابس من النسيج والمراهم والدهانات المحلية وزهرة البطاطا وعُلب من الصفيح بداخلها زيت النخيل، كن يصلن عند منتصف الليل ويُشعِلن النار في الفِناء الخلفي لطهي الطعام، وكذا من أجل التدفئة، وكانت المسيحية المتوحشة تشتري منهن بعض الأشياء، ويسعى إسحاق للقائهن لاستلام الرسائل ومعرفة الأخبار، أصبحَت هاتي النسوة جزءًا من أهل المنزل، أو هكذا أحسسنا لما يتَّسِمن به من ثقة في النفس وحرية في الحركة.

كن يتحدثن مع إسحاق بلهجةٍ غريبة، كنا نعتبر أنفسنا محظوظين عندما نفهم جملةً أو جملتَين؛ فلم تكن هي لغة اليوروبا التي يتحدَّثن بها، كنا نجيد لغة اليوروبا أما ما كن يتحدَّثن به فهي لغةٌ جديدة.

في الفِناء كانت النار والليل وثمَّة أصوات كغناء الأجبوني ذي النغمات السحرية، وكان المخزن هو مكان إقامتهن، أما في الطقس الحار فقد كُن ينشرن حصائرهن في الهواء الطلق، وينمن حتى موعد رحيلهن عند الفجر قبل أن نستيقظ، كانت النساء تبيع كل ما يأتين به، فتصير السلال والحقائب فارغة، سرعان ما يملأنها قبل الرحيل بأنواعٍ أخرى مختلفة من البضائع لبيعها في «إيسارا».

كنتُ أنا وإسحاق نحمل حقائبنا وأشياءنا في الطريق إلى المحطة، وركبنا اللوري الذي توقف في «إيبيرو» التي تبعُد عن «إيسارا» سبعة أميال، انتظرنا مدةً طويلة أن نركبَ وسيلةَ مواصلاتٍ أخرى، ولَّما لم نجد شيئًا قرَّر إسحاق أن نواصل بقية المسافة سيرًا على

الأقدام، فاقتسمنا الأشياء والحقائب فيما بيننا وبدأنا السير، وعندئذٍ تذكَّرتُ النساء اللاتي كن يسافرن عند الفجر بأحمالهن الثقيلة، آه، لقد عرفتُ لماذا كن يصلن إلى منزلنا في منتصف الليل.

قال أبي: أحيانًا كن يمشين يومَين كاملَين، ويتوقفن في قرية بالطريق لقضاء الليل.

فكَّرتُ في المسافة التي قطعناها باللوري، فقلتُ بدهشة: إنهن يمشين كل ذلك الطريق!

فلم أعُد أشعر بالتعب، وكان اشتياقي ينمو كلما اقتربنا من منزل النسوة ذوات اللون الأسود، اللاتي يقطعن كل ذلك الطريق من أجل البيع والشراء والتخلص من اللحوم المشوية والملابس النسيجية، واللاتي يتحدثن بلغة ذات أنغامٍ حزينة.

كنا على أبواب «إيسارا» حين أشرنا إلى اللوري القادم من بعيد، كانت سحابة حمراء من التراب تغطِّي «إيسارا»، كانت السحابة كبيرة وكأنها تغطِّي سطح الكرة الأرضية.

إنهم أولئك الباعة المتجولون، ضيوفنا الغامضون في «آكية»، الذين اندفعوا لإرشادنا، ها نحن الآن في منازلهم وديارهم التي تتكون من أكواخٍ وعششٍ طينية بعيدة بعضها عن بعض، شعرتُ بالحزن، وأصابتنا تلك الديار بالكآبة، ورغم معاملتهم اللطيفة معنا إلا أننا أحسَسْنا بمدى ما يعانون من تخلُّف.

لم تكن «إيسارا» مكانًا صحيًّا؛ فالمراحيض عبارة عن حُفر في الأرض، وينتشر براز الأطفال في كل مكان، مما يجعل الكلاب تطوف حوله بكثرة لالتهامه، كان البراز ينتشر في كل مكان عن طريق التصاقه بالأقدام أو عجَلات الدراجات وعربات اللوري التي تعبُر في المناسبات، وكانت أيضًا تلك الأرض غير المزروعة؛ حيث يجلس المراهقون بين الوسخ.

كان التفكير في المحظورات التي يجب علينا أن نتجنَّبها، كتناول الطعام خارج المنزل، أو مصافحة الغرباء بالأيدي، قد جعلني أبقى مع أبي في منزله المصنوع من الطين، كان منزلًا نظيفًا، ولم تكن تلك النظافة شيئًا غريبًا بالنسبة لنا.

تعجَّبتُ ذات مرة من تلك القذارة فسألتُ إسحاق: لماذا لا يأتي مفتشو الصحة إلى هنا كما يهبطون علينا في «آكية» أحيانًا ودون سابق إنذار؟ يجب أن يأتوا إلى هنا على الأقل في الفترة التي نبقى فيها.

نظر إسحاق حوالَيه بغضب وكأنه لم يسمعني، ثم قال فجأة: يجب أن تُذكِّرني بذلك عند عودتنا، لا تنسَ يا «وول» أن تُذكِّرني.

كان أبي مشغولًا بأشياء عديدة، فلم يستطع الوفاء بوعده أن يأخذني إلى مزرعته، فاقترح عليَّ الذهاب إلى «برودا بوبا» لأسأله اصطحابي إلى مزرعته، تعب «برودا بوبا» كثيرًا في الحصول على موافقة المسيحية المتوحشة، لكنها كانت نزهةً ممتعة.

كان «برودا بوبا» أحد جيراننا يعمل حلَّاقًا، وكنا نجلس بجوار باب دكانه ننتظر دورنا في الحلاقة؛ حيث كنا نُحس ألَمًا شديدًا في الرأس، كانت أمي ترسلنا إليه في أعياد الميلاد والاحتفال بالعام الجديد للاعتناء برءوسنا عنايةً خاصة، وافقَت المسيحية المتوحشة على أن أذهبَ إلى مزرعته بعد أن بذل «برودا بوبا» مجهودًا كبيرًا في إقناعها.

عند الفجر انطلقنا نحو مزرعة «برودا بوبا» الذي كان في انتظارنا خارج الباب حين صاح: هيا، سوف أذهب بك إلى المدرسة.

ثم ناولَني الفأس قائلًا: ها هو قلمُك، وبعد ساعة من السير ستجد الكتاب في انتظارك هل أنت مستعد؟

لم أكن مستعدًّا قط، قفزتُ إلى أسفل، ووجدتُ نفسي بينه وبين «ييمي»، امتلأَت رئتي بالندى ورطوبة الصباح، ولم تكن الأتربة قد سادت بعدُ.

توقفنا عن السير بعد ساعة كما قال «برودابوبا»، ثم دخلنا إلى الكوخ الصغير بالمزرعة، وتناولنا إفطارًا سريعًا قبل الخروج للعمل في الأرض.

كنا نضرب الأرض بالفأس، ونجمع الفاكهة في سلالٍ كبيرة، ولم أستطع أن أفهم معنى ذلك اللون الأخضر الذي يُغطِّي المكان، كانت الأرض تكتسي بالخضرة رغم أنه ليس موسم المطر، آهٍ، إن الأرض ناعمة وغنية وخضراء.

سألتُ «برودا بوبا» فأجاب شارحًا: إن الجدول الكبير يحيط بالأرض هنا، والماء يجري دون توقُّف، ولقد عبَرنا ونحن قادمون أحد الأنهار الصغيرة.

كان «برودا بوبا» يجنح من وقتٍ لآخر إلى السخرية والمرح.

قال: هل ترى العقرب؟

فخرجتُ من جلدي من شدة الفزع، كان بعد الانتهاء من العمل الرئيسي يختفي بين الشجيرات ثم يباغتني من الخلف ويضع بعض الفروع فوق رقبتي، حتى قلت له ذات مرة: حسنًا، إذن لا تغضب لو اعتقدتُ أنك ثعبان فسارعتُ بضربك بالفأس.

كان ثعبانٌ واحد قد رأيناه في ذلك اليوم حين تسلق «ييمي» شجرة الكولا لإحضار بعض البذور المتجمِّعة في عناقيد فوق فروع الشجرة ونادى برقة: «برودا»!

– هل تنادي «ييمي»؟

ساد الصمت لحظة، ثم سمعنا تحركات «ييمي» بين الفروع وكأنه يقوم بعملٍ سرِّي مما أصاب «بوبا» بالحَيْرة والارتباك فصاح غاضبًا: ماذا تفعل؟ إن بذور الكولا ليست هناك.

قال «ييمي» المختبئ تمامًا بين الفروع: ثعبان، يُوجد ثعبان يلتفُّ ببشاعة حول أحد الفروع؛ حيث تُوجد بذور الكولا.

نظرتُ إلى «برودا بوبا» بارتياع.

كان قلقًا فقال بصوتٍ عالٍ: «ييمي»، هل الثعبان يتحرك؟

– لا، لا يتحرك، لكنه يراني.

قال «برودا بوبا» ضاحكًا: كان لا بد أن يراك، أتريده أن يراك تتسلق نحوه ثم يتركك وينام؟ والآن، استَمِع، عليك بالتحرك بعيدًا عن الجذع، هل تستطيع؟

أجاب «ييمي»: طبعًا.

ثم راح إلى الاتجاه الآخر من الجذع.

– حسنًا، استَمِع لي، لا تتحرك بظهرك ناحية الجذع وإنما عليك بالنظر إلى أسفل، وانتبه للفروع التي تحتك؛ فقد يكون أحدها خفيفًا فيهوي بك.

توقف «ييمي» قليلًا، وسمعنا حفيف الأوراق، ثم قال: نعم، يوجد.

– إذن يجب ألا تقفز مرةً واحدة وإلا تحطَّمَت رقبتك، لا تحاول القيام بأي حركة مفاجئة، ولكن اهبط ببطء وكأنه لا يُوجد ثعبان يراك.

فعل «ييمي» الحيلة المطلوبة، وقد أصابه فزعٌ شديد حين وقف فوق غصنٍ هَشٍّ، فاندفع جسده باتجاه الأرض، ولحسن حظه فقد سقط فوق قطعةٍ طرية من الأرض، ثم رفع رأسه قائلًا: «برودا»، إنه ضخم، إنه ثعبانٌ فظيع وهائل، لا، إنه ليس ثعبانًا على الإطلاق، أُقسِم إنه ساحر، نعم إنه ساحر.

تمتم «برودا بوبا»: أوه، هو كذلك؟ هلا أعطيتَني بعض الحجارة؟ ودعني أرى مكانه بالتحديد كي ألاحقه بنظراتي.

أشار «ييمي» إلى عنقود بذور الكولا فنظرنا في اتجاه إشارته، وما هي إلا لحظةٌ قصيرة حتى تعرَّفتُ عليه، كان شبيهًا بأحد أغصان الشجرة فيما عدا لونه الأسود ونبضات جسده.

أومأ «برودا بوبا» برأسه راضيًا: حسنًا، كنت أتساءل عن الشيء الذي سنأكله مع البطاطا في الغداء.

اعتقدتُ أنه يمزح فقلتُ: إن أحدًا لا يأكل الثعابين.

نظر إليَّ وثمَّة سحرٌ غامض كان يشعُّ من عينَيه: آه، لقد نسيت، أبناء المدرس لا يأكلون مثل هذه الأشياء، إنهم يأكلون الخبز والزبد.

– لا، ليس هذا ما نأكله، لكن الثعابين لا يأكلها أحد.

– نعم، سنرى الآن، أعطني يا «ييمي» ذلك الفأس، وأنت يا ابن المدرس ثبِّت نظرك على الثعبان، لا تنسَ يا «ييمي» أن تجمع بعض الحجارة.

قلتُ له متسائلًا: لنفرض أنه قفز إلى الأرض!

قال: تحدَّثْ معه بالإنجليزية.

ثم تركني وحيدًا فرحتُ أفكِّر بعمقٍ طوال عشر دقائق في ذلك الثعبان، كان ضخمًا لا يتحرك، يبدو أنه لن يهبط إلى الأرض بسرعة.

هكذا فكَّرتُ غير أنني في الحقيقة لم أكن أعرف طبيعة وعادات الثعابين، كان الكبار في «آكية» يقتلون الثعابين التي نقابلها قبل أن أقترب منها، لكن الثعابين التي رأيتُها لم تكن قط في مثل هذا الحجم.

عندما عاد «برودا بوبا» لم أستطع أن أتأمله، كان ممسكًا بالثعبان في هدوء مثل الهدوء الذي حاور به المسيحية المتوحشة حين أقنعها باصطحابي إلى المزرعة.

قال بلهجةٍ آمرة: أعطني الفأس.

تقدم «ييمي» لإعطائه الفأس، لكنه قال: لا، لا، دع «وول» يقدِّمه لي.

كان واقفًا بالقرب من الثعبان، فتناولتُ الفأس وتردَّدتُ كثيرًا وأنا أناوله إياه مادًّا ذراعي عن آخره.

هزَّ رأسه قائلًا: لا، يا ابن المدرس، عندما تناول الفأس أو السكين لأحد يجب أن تمسكها دائمًا من النصل، تأكَّد أنك تسلمه اليد التي تمسكها بها وليس النصل، ذلك ما نفعله في المزرعة.

فعلتُ ما أراد قائلًا: ها هي.

– أوه، ستكون فلاحًا فيما بعدُ.

– سوف أكون طبيبًا.

– لا بأس، لقد قطعتُ رأس الثعبان بضربةٍ واحدة رغم أنني حلاقٌ كما تعرف، وأملك مزرعةً أعتني بها، وإذن يمكنك أن تكون ما تريد وتعمل في مزرعة في نفس الوقت.

تذكرتُ إسحاق، إن بابا يعمل ناظرًا، وهو أيضًا يعتني بالحديقة.

رمَى الفأس إلى «ييمي» الذي يعرف كيفية الإمساك به، ثم راح يحفر حفرةً في الأرض.

قلتُ: لماذا تزرعها؟

قال: تذكَّر دائمًا أن رأس الثعبان يظل خطيرًا حتى بعد قطعه؛ فقد يمر شخصٌ ما فوقها وحينئذٍ يتسرَّب السُّم إلى جسده، يجب دائمًا دفنُ رأس الثعبان أو حرقه، ومن الأفضل أن يكون ذلك بعيدًا عن الطرق التي يرتادها الناس.

قدَّم لي الأخ «بوبا» بطاطا من مخزنه، وقال: هل تستطيع أن تقشِّر البطاطا؟

– إنني أحيانًا أقوم بشوائها في المنزل لكل أفراد العائلة.

حسنًا، وسوف يُشعِل «ييمي» النار، وأسلخ أنا الثعبان، ولأنك لا تأكل الثعابين فلك أن تشوي البطاطا بزيت النخيل.

كان كلٌّ منا يجهز وجبته الخاصة، وكنا قد أحضرنا الفلفل من المزرعة، وأعددنا قليلًا من الخضروات، ومن المخزن جئنا بزيت النخيل وبعض التوابل.

انتشرَت رائحة لحم الثعبان في المكان بعد ساعة، وقد كانت بحقٍّ رائحةً جميلة تلاشت بجانبها رائحة الأوراق الخضراء الموجودة في المزرعة.

عندما أوشك الطعام على الانتهاء نظر «ييمي» إلى أعلى: «برودا». لا نستخدم مسحوق البطاطا؟

– أنتَ تعني البطاطا المهروسة.

هزَّ «ييمي» رأسه: نعم، أعرف أن بعضَ الناس يتقاتلون مع أعز أصدقائهم من أجل البطاطا المهروسة.

– أوه، أنا لا أعرف أحدًا يفعل هكذا ولكن دعنا ننتهي من هذا، إنه أول يوم في المزرعة بالنسبة لوول.

قلتُ معترضًا: نحن نملك مزرعةً في الطريق المؤدي إلى «أوزيل» خارج المدينة، ولقد ذهبتُ مع إسحاق مرةً أو مرتَين، وكان إسحاق يستأجر أحد الفلاحين للعناية بها، إنه فعلًا يُحسِن العناية بها.

– رائع، إن والدك المدرس يملك مزرعة وهو ابن فلاح، لكن عمله يجعله لا يملك الوقت الكافي للاعتناء بها كي تصبح مثل هذه المزرعة، فهل قضيتَ أنت مثلًا أسابيعَ طويلةً في مزرعتكم؟

هززتُ رأسي بالنفي.

– هل ترى، وهل قضيت ليلةً واحدة؟

– أبدًا، ولا حتى ليلةً واحدة.

– وهل جرَّبتُم طهي إناء من الطعام مثل هذا؟ أو تناولتم البطاطا المهروسة في المزرعة؟

– نحن لا نملك abule[٥] مثلك.

– هذا بالتحديد ما أتحدث عنه، ليتنا نقضي الليلة هنا إذا وافقَت زوجة المدرس.

يا لها من فكرة رائعة أن نقضي الليلة هنا في المزرعة! شيءٌ جميل حقًّا.

قلتُ دون تفكير: نستطيع؛ إذ يمكنك أن تخبرهم غدًا بأن الوقت كان متأخرًا، وأن الظلام قد هبط علينا، فقررنا البقاء والمبيت هنا.

هزَّ الأخ «بوبا» رأسه قائلًا: إذا لم نرجع بعد الغروب فسوف تُقلَب الدنيا بحثًا عنك، هيا تعالَ وساعد «بيمي» في سلق البطاطا بالماء الساخن؛ فإنني جائع.

كنتُ مثله جائعًا، وعندما بدأنا في تناول الطعام كنت متأكدًا بأنني لن أقرب لحم الثعبان، لكنني اكتشفتُ أنه ليس لحمًا لزجًا أو متعدد الألوان، كان لحمًا ذا لونٍ أبيضَ جذاب مثل لحم الفراخ والأرانب، فقرَّرتُ أن أتذوق قليلًا منه، ثم عرفتُ أن طعمه أيضًا لا يختلف كثيرًا عن طعم الفراخ والأرانب، وحمدتُ الله بيني وبين نفسي أنه لم يحرمني مثل ذلك النوع من الطعام، كما أنني أستطيع أيضًا التباهي بذلك في «آكية» عندما نعود.

هزَّ «برودا بوبا» رأسه باستحسان متعجبًا من شهيتي في تناول اللحم، فألقى بقطعٍ أخرى في طبقي.

كانت استراحة قصيرة بعد الغداء امتدَّت إلى ما قبل غروب الشمس؛ حيث بدأنا في العمل من جديد، كنا نجمع البذور ونعرض النشا للشمس، ثم انطلقنا في طريق العودة محمَّلين بالبطاطا وسلة من البرتقال وبعض الخضروات والفلفل.

كنا في منتصف الطريق بالقرب من مفترق أحد الطرق حين سمعنا صرخة إنسان، توقف «برودا بوبا» وأشار لنا أن نلتزم الصمت ونصغي السمع، كان شخصٌ ما يئن ويتألم، وكانت صرخاتُه متتالية، استطعتُ أن أسمع صوته وهو يقترب شيئًا فشيئًا، إنه صوتُ رجلٍ لكن صرخاته كانت كصوت طفلٍ مضروب.

أبصَرنا الرجل فصرنا نلهث بشدة، كان وجهه وذراعاه ورقبته متورِّمة إلى ضعف حجمهما العادي، وكانت أيضًا بعض التجاعيد بحجم awuje.[٦] حاول الرجل أن يمشي ولم يكن يقوى على الكلام.

قال الأخ «بوبا» مُشفِقًا: إنه من تلك القرية القريبة.

---

[٥] كوخ أو عشة.

[٦] نوع من الفول كبير الحجم.

وقلتُ متسائلًا: أي شيءٍ في الكرة الأرضية فعَل ذلك بوجهه؟

أجاب كلاهما: النحل.

ثم أضاف «ييمي»: لا بد أنه كان يجري.

قلتُ: وماذا كان عليه أن يفعل؟ لو كنتَ أنت مكانه لفعلتَ نفسَ الشيء.

– أوه!، لا، من الخطأ أن تفعل ذلك، يجب أن تُلقيَ بنفسك بسرعة على الأرض، ثم تتدحرج بعيدًا عن المكان.

– وإذا كانت الأرضُ مليئةً بأوراق الشجر اللاسعة فكيف تستطيع عندئذٍ أن تتدحرج.

قال «برودا بوبا»: عليك إذن أن تنحنيَ نحو الأرض إلى أقصى ما تستطيع حتى تقترب من الأرض، ثم تبدأ في التحرك بعيدًا، ولكن لا تقف ولا تَجرِ، فقط ابقَ على الأرض، وتحرَّك بهدوء حتى لو أصابَتْك الأشواك.

– قبل الانتهاء من إقامتنا عند أقاربنا من النسوة التاجرات نجحتُ في التعرف على مجموعة من الأولاد كانوا كالعادة أكبر مني، وحين ذهبنا للصيد بقيادة «جيمو» كنا نحمل النِّبال والعِصِي والحجارة، قسَّم «جيمو» المجموعة إلى نصفَين؛ يحمل أحدهما النِّبال والحجارة بينما يعمل النصف الآخر بالمراقبة، وقد كنتُ طبعًا من حاملي النبال والأحجار، لكنني لم أستطع أن أزعم أنني في مستوى «جيمو» وأصدقائه، الذين كانوا يستطيعون بسهولة أن يوقعوا بالسنجاب على الأرض بضربة واحدة من النبلة، رغم أنني في «آكية» ضربتُ بالنبلة سحليةً أو اثنتَين وطائرًا صغيرًا، لكنني عقدتُ العزم على ضرورة أن أتفوق على نفسي وأصبح ضاربًا ماهرًا.

تحرَّكْنا نحو الشجيرات في صفٍّ واحد، وكنتُ أضربُ الحفر وقِطع الخشب المتناثرة بالعصا وأهزُّ الشجيرات.

كان «جيمو» ومن معه من حاملي النبال والأحجار والعصى والهراوات ينتظرون في الجانب الآخر من الأرض لَمَّا تحركتُ باتجاه شجيرة أخرى وهززتها، فأصابني في الحال ألمٌ حادٌّ في جبهتي، تطلَّعتُ حولي فكانت الدبابير والنمل الكبير، تذكَّرتُ تعليمات «برودا بوبا»، وقمتُ بتنفيذها كما لو أنني أقوم بأحد التمارين.

إن المرء دائمًا في «إيسارا» مكبَّل بالتساؤلات، ولا شيء فيها يبعث على الاستقرار.

أعلن «جيمو» ضرورةَ أن نتوقَّف عن الصيد ولم تكن قد أصابَتْني سوى لسعتَين.

قال «جيمو» يؤنِّبني: من الممكن أن تُصاب بالحمى، لا أحد يتُوق أن يكون مسئولًا عن مصائب أبناء المدرس.

هل كان من سوء الطالع أن أكون ابنًا للمدرس؟ لكنني على أية حال كنتُ قادرًا على إنقاذ نفسي، فتحملتُ جروحي وآلامي بشجاعة حتى عُدتُ إلى المنزل، وشرحتُ لهم كل شيء. كان رأس أبي مثل رءوس القساوسة لكنه عنيد ومليء بالأفكار والإشعاعات، وكان كالحصن المنيع، حتى إنني اعتقدتُ في يومٍ من الأيام أن الرصاصة لا تستطيع اختراق ذلك الرأس، الذي يحتفظ بالكثير في داخله دون البوح به، لكنه كان بشعره الغزير ناعمًا كالحديد المطروق، وأصغر حجمًا من رأس ابنه.

كنا نتناقش بشجاعة، وكنتُ أعرف أنه لا يؤمن إلا بما يعتقد مثل الأجبوني في «آكية»، أو مثل القساوسة بمختلف أنواعهم وأشكالهم، وكذلك مثل المسيحية المتوحشة وصديقاتها المتديِّنات اللاتي يمشين في الشوارع والأسواق والطرقات في نهاية كل أسبوعٍ من أجل الدعوة إلى كلمة الله.

كنتُ في قرارة نفسي خائفًا من الأب الذي بدا لا مباليًا بكلمة الله عندما حكيتُ حادثة النحل، وقال: «أوجن» يحمي أتباعه.

قلتُ له: لقد سمعتُ بهذا الاسم من قبل، إن أوجن شريرٌ وعابدٌ للأصنام، إنه يقتل الناس ويحارب الجميع.

– أهذا ما علموك إياه؟

– نعم، أليس ذلك حقيقيًّا؟

حك ذقنه واخترقَني بنظراته، ثم سألني سؤالًا غير متوقع: هل يضربك زملاؤك؟

– أحيانًا، لكنهم غالبًا ما يخافون؛ لأنني ابن الناظر.

– هل أنتَ الذي يخبرهم بذلك عند بداية الشجار؟ لا بد أنك أنتَ الذي يقول لهم ألَّا يضربوك لأنك ابنُ الناظر!

– لا، أنا لا أقول ذلك، إنهم يقولون من تلقاء أنفسهم.

– ماذا تعني؟ كيف يقولون ذلك؟

– إنهم يُشيرون بأصابعهم نحوي قائلين: أنت محظوظ، أهٍ لو لم تكن ابن الناظر. أعتقد أنهم يخافون الفصلَ من المدرسة إذا ما لمسوني.

– وهل تعتقد أن «آيو» يفصلهم إذا ما فعلوا؟

– لا، إن أحدًا لا يخبره بأننا كنا نتشاجر، وإذا حدث وعدنا بملابسَ ممزَّقة فإنهم يعاقبوننا، وكنتُ أتعجَّب لمَّا كان يضربني علانيةً وبشكلٍ غير عادل، ماذا ترى في ذلك يا أبتي؟ يضربوننا بالخارج ونعود إلى المنزل فيضربوننا من جديد، ليس ذلك من العدل في شيء، أليس كذلك؟

تلألأَت عينا الأب بفرحٍ داخلي، ثم نهض متجها إلى الركن البارد، وشد برميل النبيذ، فسارعتُ بإحضار القنينة من الدولاب وقلتُ: إن «آكية» كلها تعرف أنهم يجلدوننا بالسياط إذا ما توَّرطنا في قتال أو شجار مع أحد، لكن الذين لا يحضرون إلى مدرستنا لا يهتمون ولا يخافون وإنما يقولون باستفزاز: قاتلني مرةً أخرى إذا كنت تجرؤ، ثم يصوِّبون ضرباتهم بسرعة ويلوذون بالفرار أو نلوذ نحن بالفرار.

نظر إسحاق نحوي بقصد، وقال: أمتأكدٌ أنت أنك لا تجري لأنهم أكبر منك؟

– أوه، إنهم جميعًا أكبر مني؛ فأنا لا أذكر أنني تشاجرتُ مع أحد في مثل سني.

لكنني فجأة تذكَّرتُ ثم أضفتُ: ما عدا مرةً واحدةً مع «ديبو».

تراءى أمامي المشهد كاملًا فشرحتُه للأب ثم سألتُه: أبي، إنهم ولا شك قومٌ ظالمون، إنهم يعاقبوننا عندما نتشاجر بالخارج، وفي نفس الوقت يثيرون أخي نحوي!

ظل الأب يهرش نهاية ذقنه وهو يقول: سوف تفهم فيما بعدُ، إنهم يحاولون فعل الصواب لكنهم يتصرفون بطريقةٍ خطأ.

ملأ كأسي إلى منتصفها، وكأسه إلى الحافة حتى كادت الرغوة أن تتساقط فسارع باحتسائها، كنتُ أرشف من كأسي مراقبًا وجهه الذي اكتسى بالعبوس، ثم قال بقرف: ذلك الرجل كسول؛ فالأشجار التي يستخدمها في صناعة النبيذ سيئة وقديمة، إن كل الأشجار في مزرعة «لاريلو» قديمة وسيئة.

ثم هزَّ رأسه مؤكدًا: سوف أرى ذلك Alakori.[٧]

عاود ملء كأسه بنفس الطريقة، وهو يزيل orogbo[٨] ويفتِّت قشرتها الرفيعة بأصابعه، وقال: دعنا نواصل حديثنا، إن الأب يريدك أن تلتحق بمدرسة الرجل الأبيض في «أبادان».

– كلية الحكومة؟! لكني انتهيتُ توًّا من المرحلة الثالثة، ولا يزال الوقت طويلًا.

– ليس طويلًا كما يرى الأب، إن آيو يعتقد في العقول وليس في الأجساد.

تجهَّم فجأة، وقطَّب وجهه: انتظر، هل قلتَ إنك في المرحلة الثالثة؟

– نعم، ولقد بدأت في المرحلة الرابعة.

---

[٧] شخصٌ لا أمل فيه.

[٨] نوعٌ من البندق يُستخدَم كمُنبِّه.

راح رأسُه المليء بالأفكار يصعد ويهبط مثل أنثى السحلية: نعم، ذلك ما قاله والدك؛ أي إنك في نهاية العام القادم سوف تنتهي من المرحلة الرابعة، وهو يريدك بعد ذلك أن تلتحق بالمدرسة الثانوية، يجب أن تتقدم لاختبار المدرسة الجديدة.

– نعم، سوف أجتاز كلا الاختبارَيْن؛ مدرسة «أبيوكوتا»، ومدرسة الحكومة.

أومأ برأسه مرةً ثانية: وإذن، فأنت الآن في الثامنة والنصف تمامًا من عمرك، أليس كذلك؟

– نعم، تمامًا.

– إذا دخلتَ تلك الكلية الحكومية فسوف تغادر المنزل وتقيم في المدرسة؛ أي إنك ستكون مسئولًا عن نفسك لأول مرة دون مساعدة والدَيك. سيكون ذلك عند بلوغك تسع سنوات ونصفًا، فهل أقول الصواب؟

قلت له بأنه على صواب، وأن كل ما قاله صحيح، وكنتُ أعرف ما تؤدي إليه هذه الخطوة، فأكدتُ له بأنني لستُ خائفًا من مغادرة المنزل، لكنني في الحقيقة كنتُ قلقًا، وتملَّكَني اليأس من الفكرة، ولم أكن راغبًا في أن يقول لإسحاق أنني لم أعُد صغيرًا.

– أتعتقد أنني لستُ صغيرًا لمغادرة المنزل أيها الأب، أليس كذلك؟

– لا، إن الأطفال يتركون منازلهم لأغراضٍ أخرى أيضًا وليس فقط من أجل الدراسة، لا، كنتُ أفكر في أن الآخرين سيكونون أكبر منك كثيرًا تمامًا، مثل زملائك في مدرسة «آيو» الذين يكبرونك أيضًا.

– ولكنني أتفوق عليهم جميعًا في الفصل، ولا أعاني أية مشكلة على الإطلاق.

– نعم، لقد أخبرني والدك بذلك، لكنك لم تفهمني حتى الآن، إن الناس لا تذهب إلى المدرسة الثانوية من الابتدائية مباشرة، إنهم غالبًا يلتحقون بالمستوى السادس الأوَّلي؛ حيث يحصلون على شهادة «الأساميند»، ثم بالتعليم الشعبي، ويستطيعون عندئذٍ العمل كمدرسين أو مفتشي صحة أو مرشدين في السكك الحديدية.

ابتسمتُ لكن الأب أساء فهمي حين قال: لا شيء يدعو للضحك، إنهم يعملون بهذه الشهادة، وبعد أن يوفِّروا منها الكثير يلتحقون بالمدرسة الثانوية؛ حيث يحاولون ويحاولون عدة مرات أن يصلوا إلى المستوى الثامن، لكن معظمهم يتوقف عند هذه المرحلة، والقليل جدًّا مَن يصل إلى المرحلة الأخيرة، والآن، هل ترى ما أقصد؟ وهلي تفهم ما أعني؟ يجب أن تفكِّر في زملائك بالمرحلة الثانوية، إنهم ليسوا مثل زملائك الأكبر منك في المدرسة الابتدائية، وإنما ستراهم رجالًا وقد تجد بينهم متنزوِّجين يُخفون طفلًا أو طفلَين في أحد الأركان، سوف تشارك رجالًا في مقاعدهم.

قال ذلك وحكَّ ذقنه وكان يضحك بصوتٍ مكتوم وهو يقول: سوف يأتون بصابون الحلاقة والأمواس.

انتهى من ضحكاته المكتومة وتظاهر بالوقار من جديد: إن «آيو» طموح فهو يريد إرسال ابنه إلى المعركة، صدِّقني فإن عالم الكتب هو ساحة للحرب، إنها أكثر المعارك ضراوة، أكثر من تلك التي اعتدنا أن نسمع عنها؛ فهل تعتقد أن أولئك الرجال سيسعدون بوجودك؟ فلتبدأ في منافستهم.

ملأ كأسي مرةً أخرى وقال: اشرب نبيذك؛ فهو خفيفٌ تمامًا، ولا يترك أثرًا، وحتى لو شربت القنينة كلها فلن تشكو «إينيولا» لكوني جعلتُ منك سكيرًا.

آهٍ، «إينيولا»، كان الأب واحدًا من القليلين الذين يدعون المسيحية المتوحشة بهذا الاسم، «رانسوم كوتي»، «داودو»، «أوديمو» وكذلك «مورون» هم الذين كانوا يدعونها بهذا الاسم، بالإضافة إلى واحد أو اثنَين من الأقرباء الذين كانوا يباغتوننا من حيث لا ندري، ثم يتلاشون كالزوبعة، أما الآخرون فكانوا يقولون ماما «تيني» أو ماما «وول» أو Iyawo[٩] الناظر.

ظل الأب يراقبني، وينظر إلى بطريقةٍ متعمَّدة وهو يقول: أيًّا كان الأمر، فإن الإنسانية فيها الخير وفيها الشر، واليأس هو الذي يحول بعض الناس إلى أشرار، ويشعل نار الحسد والغَيرة التي تجدها في كل مكان، نعم في كل مكان، هل تعرف سبب وجودي؟ أو من أجل أي شيء أحيا؟

أصابني الارتباك وتلعثمتُ، ولم أستطع أن أفهم ما يقول: أنا لا أفهم!

مال بذقنه ناحية رقبته وبدأ يهزُّها مثل الديك الصغير: أوه، أتعتقد أنني جئتُ بكم إلى هنا بمناسبة العام الجديد دون أن أحذر منكم؟ يوجد الكثير في العالم، إن العالم ليس هو عالم المسيحيين أو عالم الكتب، آه، كفى ذلك اليوم؛ فكلانا لديه أعمالٌ للغد.

رحتُ أفكِّر في أعمال الغد التي تحدث عنها، هل هي زيارةٌ أخرى للمزرعة، لكنها بالطبع ستكون مزرعة الأب هذه المرة؟ لم أستطع احتمال توقعاتي فبادرتُ بالسؤال: أي أعمالٍ تعني؟

انتصب واقفًا: أوه، نعم، لقد نسيتُ أنهم أخبروني بأنك لا تتوقف عن إلقاء الأسئلة، اذهب والعب مع أصدقائك؛ فلقد أعددتُ كل شيء مع والدك، لكنني فقط لم أحدِّد اليوم، والآن فلنواصل حديثنا غدًا.

---

[٩] زوجة.

لاحظ أنني قلقٌ لعدم تقديم أي تفسير عن سؤالي، فهزَّ رأسه قائلًا: غدًا، لكنك على أي حال ستعود الليلة وتنام هنا، هيا اذهب.

– كان إسحاق منذ اللحظة الأولى التي وصلنا فيها إلى «إيسارا» ينام في منزل الأب، وكنا نحن الأطفال والمسيحية المتوحشة نشغل المنزل بدونه، انفصل تمامًا عن عائلة «آكية» وراح يندمج مع مدينته، كانت تشغله بعض الأمور الثابتة كاجتماعات المدينة واجتماعات العائلة وجلسات مجلس الكنيسة، كانت في انتظاره مئاتٌ من الواجبات على مدار السنة، وكان يُمضي معظم الوقت مع «أوديمو» الذي كان يُخفِّف من أحاديث إسحاق الصعبة في «إيسارا»، بمساعدة واحد أو اثنين من بينهم أبي الروحي، الذي هو زوج السيدة التي كان مفروضًا أن تصبح زوجتي.

تساءلتُ كثيرًا كيف أن «أوديمو» لا ييأس من أولئك الرفاق.

كان من اليسير لواحدٍ منا أو أكثر أن يبقى وينام في منزل الأب؛ فلم تكن ثمَّة تعليماتٌ صارمة تمنع ذلك، خاصة وأن الحصائر كانت متوفرة، بالإضافة إلى السطح المليء بروث البهائم الذي يستخدمونه كحجرة للنوم.

كنتُ أقضي نصف ليالي «إيسارا» في منزل الأب، رغم الناس الكثيرين الذين كانت ترسلهم المسيحية المتوحشة لاستدعائي، وعند صدور أول أمرٍ مباشرٍ أن أنام هناك لم أستطع أن أغالب الأرق حتى وقتٍ متأخر من الليل.

استيقظتُ مبكرًا فأبصرتُ الآب ينحني نحوي ماسكًا المصباح في يدَيه، لم تكن الشمس قد أشرقَت بعدُ وكان اثنان آخران موجودَين في ركن الحجرة؛ أحدهما رجلٌ كبير، والآخر ولدٌ صغير، لكنه أطول مني، ودون أن أدري رأيتُ نفسي أنظر في كل الاتجاهات بحثًا عن أبي، ولم أكن أفكِّر في شيء سوى الجولة التي سنقوم بها.

قلتُ: إلى أين نحن ذاهبون؟

– هل استيقظتَ تمامًا؟

– نعم.

– إذن، اذهب واغتسل، لقد تركتُ دلو الماء في الفِناء.

فعلتُ ما أمرني به، وفي الطريق شاهدتُ طبقًا من الطين الخزفي بين الرجل الكبير والولد وزجاجة من زيت النخيل وبعض العلب الصغيرة المليئة بالبودرة، كان الطبق المسطَّح يحتوي قِطعًا معدنيةً تشبه المحار.

تساءلتُ كثيرًا بيني وبين نفسي وأصابني الارتباك، انتهيتُ من الحمَّام وأنا أرتعش من برودة الصباح والإحساس بالتشاؤم، وعند عودتي من الفِناء لاحظتُ إعادة تنظيم الكراسي

والمقاعد الصغيرة، وكانت العصا قد تحرَّكَت من مكانها عند الحائط إلى منتصف الحجرة، كان الرجل الكبير واقفًا والولد راكعًا بجانبه يُعيد تنظيم القوارير والأباريق والصواني ومجموعة غريبة من المعدَّات والأجهزة والآلات.

قال الأبُ بلغة الأمر: تعالَ واجلس هنا.

كان يُشير إلى الكرسي الخشبي، فقمتُ بإطاعته، ثم تحرَّك من الباب وأصبح في مواجهتي حين قال: لعلك تتذكَّر ما تحدثنا عنه بالأمس!

أجبتُ: نعم.

– عظيم، والآن استَمِع بانتباه، سوف تُعاني الكثير في خطوتك القادمة، انظر لي!

نظرتُ بسرعة إلى الصينية على يساري، وتطلعتُ إلى عينَيه المحترقتَين وهو يقول: من الأفضل لك ألا تفكِّر بمصدر المعاناة والألم، إن هذا الولد في مثل عمرك، فهل تريد أن تخجل من نفسك بأن تصرخ أو تشكو قبل أن يفعل هو ذلك؟

توقَّف عن الحديث، ثم اخترقَني بنظراته في انتظار إجابتي، فقلتُ: لا، أنا لا أصرخ أو أبكي.

شعرتُ بالخوف، ولم يتوقف قلبي عن الخفقان، وظَلِلْتُ في انتظار ما هو أسوأ؛ إذ لم تكن لديَّ أية فكرة عما سيقومون به، لكنني كنتُ أعرف أنه يجب ألا أبكي مهما كان الألم، وعندئذٍ تذكرتُ شيئًا، آه، لقد بكيتُ عندما ماتت «فولاساد».

قال الأب: كانت تلك الطفلة abamigidi[١٠] ولقد أخبرتُ «آيو» في حينها، وعلى أية حال فإن Ibanuje, Ko m’omode, Ko m’agba.[١١]

وفجأة أومأ برأسه للرجل الغريب، ثم شعرتُ بغتة أن قدميَّ مسمَّرتان في الأرض، وأن كعب الحذاء مضغوط، ثم تحركَت يده بسرعة، وضغط على كرة قدمي إلى أسفل، وأنا أواصل ضغط كعب الحذاء على الأرض بينما راح الولد الصغير يمسح قدمي بخرقة مبلَّلة، ثم أمسك الرجل الكبير بالمشرط، اشتد الألم في قدمي فصرختُ مثبتًا أقدامي فوق الأرض بيدي اليسرى، لكن جسدي بدأ يترنح، وأنا أواصل الصراخ غير أن زوجًا من الأيدي القوية كان يضغط فوق كتفي.

---

[١٠] طفلة غريبة وسحرية، غريبة حقًّا.

[١١] إن الندم والموت لا يعرفان إذا ما كان الإنسان صغيرًا أو كبيرًا.

رأيتُ كما يرى النائم نفس الشفرة المعدنية تتلألأ داخل الطبق أو خارجه، فانتشر الألم في جسدي كله، نظرتُ إلى الجرح فكان الدم ينزف، وأطلقتُ أول صرخةٍ حادة، لكن الدموع التي استقرت في عيني رفضَت أن تتدفق، ضغطتُ على أسناني حتى لا أصرخ مرةً ثانية، وضغط الأب بأصابعه فوق كتفي، وكان جسدي يتقلص مع كل حَزٍّ بالمشرط في قدمي، حتى لم أعد أستطيع النظر إلى أسفل، فأغلقتُ عيني لاصقًا أسناني ببعضها في انتظار نهاية هذه المحنة.

بدأَت الدموع تتدفق رغمًا عني.

ربطوا قدمي، وكانت لفافة كبيرة في الخليط الموضوع في الطبق، نزعوا قدمي من الأربطة ووضعوها في ذلك الخليط، كان الولد لطيفًا جدًّا، تكرر نفس الشيء مع القدم الأخرى، غير أنني لم أشعر بما شعرتُ به.

أصبح فكي طليقًا، ولم أعُد أقبض على أسناني، وأعجبَني ذلك الاستخدام الدقيق للسكين.

لم أصدق أن الانتهاء من كل شيء قد تم في وقتٍ قصير، أشرقَت الشمس في الخارج وكانت الظلال منتشرة عبْر الباب، كان الغريب يتحدث ببطء في ركن الحجرة بينما يومئ له الأب بالموافقة، ثم عاد الرجل الكبير يلمُّ معدَّاته وأدواته، وكان الولد يغسل الطبق خارج الباب عندما كان الرجل ينظف الشفرة، ويصُبُّ بقية البودرة في أباريقَ صغيرة، قام بوضعها في حقيبةٍ واسعة، كنتُ قد رأيتُها منذ قليلٍ معلقة على الباب.

كان الأب يودِّعهم، ثم أغلق الباب، وجلس فوق الكرسي الخالي قائلا: «وول»، لقد كنتَ قويًّا، والآن استمع لي بانتباهٍ شديد.

تناول علبة النشوق وفتحها، ثم التقط بعضًا منها بيده اليسرى، وأعاد وضع الغطاء مستطردًا: تناول الطعام الذي يقدِّمونه لك ولا تخَفْ، دع الشكوك جانبًا وتناول طعامك، ولا تأتِ إلى هذا المنزل مرةً ثانية، هل تفهم ما أقول؟

هززتُ رأسي دون أن أنطق بكلمةٍ واحدة.

قال: عليك بمواجهة المعارك، ولا تُعطِ ظهرك لها، وحيث تجد نفسك لا تهرب من التصدي للمعارك، إن خصمك غالبًا ما يكون أكبر منك، ولا بد أن يقهرك في المرة الأولى، وعند ملاقاته في المرة الثانية لا بد أن تتصدى له، غير أنه أيضًا سوف يقهرك، لكنني أَعِدُك بأنك ستقهره في المرة الثالثة أو أنه سيلوذ بالفرار، هل تسمعني؟

– نعم يا أبتي.

لقد أرسلتُ والدَيك وبقيةَ الأطفال إلى «ساجامو» لزيارة بعض الناس، وإذن فنحن الآن بمفردنا.

تجوَّلتُ بنظراتي في الحجرة بحثًا عن أبي الذي كنتُ أعتقد في وجوده بأحد أركان الحجرة، فابتسم الأب وهزَّ رأسه: أوه، إن ما حدث بيننا نحن الاثنَين فقط، والآن يجب أن أمضي لأن اجتماعًا ما في انتظاري، وثمَّة شخصٌ سوف يُحضر لك الإفطار، لا تأكل أي شيءٍ آخر اليوم وغدًا فيما عدا ما أرسله لك، هل تفهم؟

قلتُ له مؤكدًا بأنني سأفعل ما قاله، ثم شعرتُ بالإرهاق، وازدحمَ رأسي بالأفكار.

أحسستُ أن يدي منفصلة عن جسدي، وسمعتُ نفسي أتساءل: هل ما فعلوه بقدمي قد حدث مع بابا عندما كان صغيرًا مثلي؟

رفع الأب عينَيه إلى العارضة الخشبية قائلًا: لقد أخبروني بذلك، آهٍ، إنهم على صواب، لقد حذَّرني «آيو» وكذلك «إينيولا» بأنك سوف تقتلني بالأسئلة.

ذهب الأب إلى حجرته، واستطعتُ أن أسمع ضحكاته المكتومة مخلفًا وراءه صرخاته وأوامره.

كنتُ جالسًا ما أزال، حاولتُ أن ألمس قدمي، هل ستتحمل وزني أم أنني سأقع إذا وقفتُ؟ يبدو أن حَيرتي قد انتقلَت إليه في حجرته حين سمعتُه: حاوِل أن تمشي على الحرف الخارجي للقدم، ثم على الحرف الداخلي، وإذا فشلتَ فعليك أن تمشي بالطريقة العادية، بدون أن تضغط على قدم دون أخرى، ولكن برقَّة وهدوء.

كنتُ متأكدًا في اعتقاد الأب أنني لا أفهم فوقفتُ على قدمي، ورحتُ أضحك بسخرية.

١٠

لم يكن رنين ساعة الكنيسة أو أصوات فرقة البوليس أو مدَّخرات السوق هي وحدها ما نسمع، وإنما أيضًا كانت أجراس الفرق الإلكترونية التي يحملونها ويساومون بها في بيع البضائع المستوردة، امتلأ الطريق الذي يتوسط سور فِنائنا الخلفي وسور الكنيسة ببضائع الباعة الجائلين، شالات وأمشاط ومرايا، إيريال للراديو، رغاوٍ بألوانٍ مختلفة وقطع غيار من المطاط، قوارير وأكواب للشراب وأخرى لوضع الزهور، مفارش شرقية للموائد مصنوعة في مانشستر، ساعات ومجوهرات، براويز للصور وأخرى لصور راكيل وولش ومارلين مونرو وديانا دورس وجين راسل وجريتا جاربو وبعض صور نجوم العالم من الرجال بشواربهم الفظة.

كانت «آكية» مليئة بالأصوات والتحركات الغريبة منذ الفجر وحتى الغسق، ثم تلك الأحاديث والروايات المختلفة التي كنا نسمعها ونحن فوق حصائرنا فتزيد من حَيْرتنا، ونحن نقاوم النوم والبقَّ والصراصير والحشرات ذات الأجنحة الشفافة القادمة من كنيسة القديس بطرس.

عند زيارة العمة «ليجادو» أو القيام بنزهة في الليل كنتُ أغنِّي طوال الطريق خوفًا من أخطار الظلام والعفاريت وأرواح اللصوص، وذات يومٍ سمعتُ مَن يغنِّي بأعلى صوته:

«أنا الساحر،
يجب أن تعرفوا جميعًا؛
فسوف تسمعون عني أينما ذهبتم،
يمكنكم رؤية اسمي بحروفٍ كبيرة،
وتستطيعون رؤيتي وأنا ألتهم دجاجة كبيرة،

أنتوني بيتر زخاري الأبيض،
الرجل الذي يهب السرور دائمًا،
أصدقائي، تعالَوا وشاهدوا،
أي نوعٍ من السحرة أكون،
تعالَوا جميعًا، مرةً واحدة،
والتحقوا بالجمع،
ارفعوا أصواتكم بالشكر والثناء.»

لماذا الدجاج؟ كان سؤالًا يبعث على الحَيْرة؛ فلم تكن قوة الساحر غريبة لكنها غامضة، وكان أولئك السحرة الذين تلقَّوا تدريبًا في الهند يقومون بأعمالهم دائمًا في الصالة المئوية؛ حيث يحرقون البخور ويُتمتِمون بمئاتٍ من التعاويذ والكلمات الغامضة ويرشُّون المياه الروحية.

أصبحَت الأغاني هي حارسي الدائم وأنا أعبُر الطريق بين سور فِنائنا الخلفي وفِناء الكنيسة، كما كنا نغنِّي النشيد الوطني مع الكورس في المواسم، مما ساعد في تقوية صوتي، فكانت النغمات تخرج من حنجرتي واضحة، لكن الكلمات كانت تبدو وكأنها لغةٌ غريبة هي خليطٌ من الإنجليزية ولغة اليوروبا، كتلك التي يتحدث بها طفلٌ جميل من خلال زجاج النافذة.

كنا أحيانًا نشاهد السيد «أوريجا» عازف الأرغن وهو قادم من بوابة الكنيسة الخلفية، اتجهتُ ناحيته ذات يوم وأنا أُنشِد بعضًا من الشعر الوجداني الغامض.

كان رجلًا متهدلًا يبدو كالشبح، ودائمًا ينظر حواليه وهو يمشي بخطًى واسعة نحو الكنيسة كي يلحق بالصلاة، توقفتُ وقلتُ له بفزع: مساء الخير يا سيدي.

تمنَّيتُ ألا يكون في غنائي ما يمسُّ الدين حتى لا يخبر إسحاق في اليوم التالي، لكنه جاء لزيارتنا ومعه ديك كي يسأل إسحاق أن ألتحق بالكورس، وليس لإخباره بأية مخالفة كما تصوَّرت.

تناقَش مع إسحاق طويلًا، وكان ثمَّة إحساسٌ غريب قد تملَّكَني منذ اللحظة الأولى التي رأيتُه فيها وهو يقترب من الباب الأمامي.

قال إسحاق: إنه ما يزال صغيرًا.

لكن السيد «أوريجا» كان مصرًّا على أن صوتي صالح للسوبرانو، وأخيرًا تمَّت الموافقة.

كان «أودون» يقيم في الجانب الآخر من سوق «إيبارابا»، وقد تم اختياره معي للكورس، وكم سعدنا بذلك الاختيار؛ لأنها فرصةٌ أخرى للتحرر من قيود أهل البيت، إلى جانب الدروس والكشافة وبعض القصص الخيالية، أصبح لدينا ما يُبرِّر خروجنا؛ فكان يكفي أن نقول: نحن ذاهبون إلى تدريبات الكورس، لكنني بالرغم من أنني أعيش بالقرب من الكنيسة حيث التدريبات إلا أنني كنتُ أعبُر الطريق بين ميدان «آكية» وسوق "إيبارابا" متجولًا خلال السوق حتى أصل إلى «أودون»، لأعود معه في نفس الطريق قاصدًا الكنيسة للتدريبات.

لم يكن سوق الصباح يثير اهتمامي، فقرَّرتُ تغيير طريقي إلى سوق المساء، في الجانب الآخر من الطريق المؤدي إلى «إيبيريكودو»، وكان هذا يعني أن مسافة السير ستزيد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، فرحتُ أخرج قبل موعدي حتى أصل في نفس الموعد، كانت رائحة الورود في السوق تنعش الأنوف في المساء وكأنها تشير إلينا أن ننفقَ نصفَ ما نجحنا في توفيره طوال الأسبوع.

وقفنا في السوق ذات مرة نتأمل الأصابع الرقيقة للمرأة العجوز وهي تغرف عجينة الفول البيضاء من الطبق بكمياتٍ متساوية وتلقي بها في الزيت المغلي؛ حيث تغوص في الزيت وتترنح فوق السطح، ثم تتحول إلى اللون القرنفلي وتصبح كالفقاعة، كانت قشرة العجينة من الخارج يابسة ذات لون يميل إلى الأسمر، وكانت عجينة الفول من الداخل مختلطة بالخضروات والفلفل الأحمر، لكن النقود لم تكن كافية لإشباع كل الرغبات التي كنا نتغلب عليها بالرؤية والشم.

أصبح تدريب الكورس سببًا أساسيًّا للنزهة عبْر «إيبارابا» والتمتع بروائح المساء الفاخرة، وما هي إلا شهورٌ قليلة حتى أصبحنا من المرتِّلين الجيِّدين فلم نعُد تحت التمرين، لكنني ظللتُ أغادر المنزل مبكرًا في أيام الآحاد وأعياد الكنيسة الأخرى لاستدعاء «أودون» لتراتيل الصباح والمساء.

لم يكن سوقُ الصباح يعمل في أيام الآحاد، لكن امرأة كانت تأتي وتصنع الطعام من جراد البحر والفول والأرز ومختلف أنواع البطاطا، كانت تقف وحيدة تواصل عملها، لكن إفطار المنزل كان كافيًا فلم تستطع أن تثير شهيتنا، كنت أضع الرداء الكهنوتي الأبيض فوق كتفي وأسارع بإحضار «أودون» مناشدًا الله أن أصلَ بأقصى سرعة إلى «إيبارابا»، كي ننفق كل النقود التي أعطَونا إياها، في الكبدة التي تصنعها المرأة العجوز، إلى أن تدق أجراس الكنيسة مشيرة إلى بدء الصلاة وملاقاة الرب، كنا نغنِّي ونرتِّل الأناشيد بطريقةٍ

أفضل بعد قضاء وقتٍ طيب عند المرأة العجوز، كانوا يتضايقون لتبديد تلك النقود في يوم الأحد، لكنَّ أحدًا لم يعاقبنا.

كان الباعة المتجولون ينادون بالغناء على بضاعتهم، وأيضًا كانت المحلات المضاءة بمصابيح النيون الخضراء إلى جوار محلات «ماكدونالد هامبورجر»، و«كنتاكي فرايد تشيكن»، ومحلات السجق ذات الشكل الهندسي المنتظم مثل شرائح الصابون، والذي كان الأغنياء يضيفون إليه البيض والأسماك المعلبة القادمة من البرتغال والبلوبيف القادم من الأرجنتين، كانت آلة لصنع الفشار المنتفخ كالقنفذ بجانب تلك المحلات المضاءة، وكان الفشار ملفوفًا في أكياس نظيفة من البلاستيك معلقة في مواجهة العابرين الذين يتوقفون للشراء بعيونٍ جاحظة وأسنانٍ متحركة، كانت أذرعهم تتسابق في الشراء ملوِّحين بها إلى أعلى وأسفل مثل الدجاجة، وكانت أصوات الراديو والكاسيت تدوِّي من تلك المحلات المتلألئة.

كانوا يتوجهون إلى بوتيكات الزينة لشراء الدهانات الخاصة بتحسين الوجه أو الشعر في حالة من الانبهار بكل ما هو جديد، ويتوقفون عند «ماكدونالد» لالتهام السجق، ثم يشربون الكوكاكولا.

كان الزحام والضوضاء والتنافس في الشراء أو المشاهدة؛ فهكذا تبدو الأشياء في بداياتها، لكنها للأسف كانت تقليعةً أجنبية.

كان أبناء الأطباء والمحامين والمهندسين والبيروقراطيين يمرون عبْر «دايزي» يتطلعون إلى القبعات، ويتجمعون عند «كنتاكي فرايد تشيكن»، أما البنات فكن يتوقفن عند الكوافير؛ حيث موسيقى الديسكو ورائحة المشط الساخن، الذي يتخلل شعر الزبونة الشابة دون أن يحرقه.

كان التجول في «دايزي» يتسم أحيانًا بالقلق حين يصبح ميدان «آكية» مليئًا بالروائح في موسم المانجو، فتنتشر أسراب النحل والفراشات، وفي أحد المواسم كانت شجرة المانجو خصبة تكسوها الظلال، فكان بائعو الطماطم يقفون تحتها بسرور، وكان عمال وموظفو الحكومة وأولاد المدرسة والمسافرون في اللوري يحيطون الشجرة من كل الجوانب، يقدمون الطعام وأحيانًا الملابس إلى «سوروانك» التي كانت تثير الانتباه.

كانت «سوروانك» تعيش بالقرب من شجرة المانجو في كوخٍ من الكرتون المقوى، ولم يكن حبيبها «يوكولو» يملك مسكنًا ثابتًا، كان يتسكع في طول وعرض «أبيوكوتا»، وكم كان يسيرًا أن تلقاه في كل الأوقات بأي ركن من المدينة، وحدث أن رأيناه ذات يوم يشارك

«سوروانك» الطعام، كان يأتي إليها كثيرًا، وعرفنا من تلك الخِرق البالية التي كانت تنشرها خارج الكوخ بعد غسيلها أهمية الرجل بالنسبة لها، أصبح «يوكولو» يقضي معظم الوقت حول شجرة المانجو، بعد أن توقف قليلًا عن جولاته في المدينة، ولم يتوقف عن مشاركة «سوروانك» الطعام.

ظل الناس منتشرين حول شجرة المانجو يتحدثون بشأن تلك العلاقة الغريبة بين «سوروانك» و«يوكولو»، وأصبح التلاميذ يعودون كل يوم بأخبارٍ جديدة عن تطور العلاقة الغرامية بين هذَين المنبوذَين، وكنا نسمع عنهما الكثير من بائعي الطعام وزبائنهم.

رغم ظلال شجرة المانجو الكثيفة فقد تحرك بائعو الطعام بعيدًا نحو الكنيسة، وتركَت «سوروانك» وحبيبها المكان إلى موقعٍ جديد عند الشجرة، وكان من السهل مشاهدتهما عند الظهيرة مستلقيَيْن بظهرهما على الشجرة، كانا يستخدمان خشبَ الشجرة في التدفئة، وأحيانًا في طهي الطعام، كان طعامهما لا يقلُّ حلاوةً عن لحم الخنزير المشوي والبطاطا والليكي، وكل الأشياء الطيبة الأخرى التي كان بائعو الطعام يعملون بها.

لم تعُد «سوروانك» تتكلم كثيرًا، وبدأ بطنها يكبر شيئًا فشيئًا، لم تعُد تثرثر عن العالم والكون ورحلات «يوكولو» الغامضة حول العالم، وإنما صارت تتمتم وتتلو التعاويذ التي لا يستطيع أحد أن يفهمها، وعند اختفاء رفيقها انطوت على نفسها، وكانت تنظر إلى الأرض دائمًا وهي تتمتم، يبدو أنها كانت تتحدث إلى الانتفاخ في بطنها.

ذات صباحٍ سمعنا فجأة بعض الصيحات والصرخات، تسلَّقتُ السُّلم مع الآخرين فرأينا بعضَ زملائنا في المدرسة يرجمون «سوروانك» بالحجارة والعصي، ولم يوقفهم إلا مرور الباعة المتجولين وبعض الرجال الذاهبين لأعمالهم، وكانت قبل ذلك بأيامٍ قليلةٍ قد عادت إلى الكوخ، بعد غيابٍ غير عادي لم يدُم طويلًا، فوجدَته محترقًا بالنيران، وكانت أشياؤها مبعثرة في أماكن متفرقة بعيدًا عن الشجرة، أصبحَت تجلس في وضعٍ واحد لا يتغير، ونادرًا ما كانت تأكل؛ فلم تكن تملك طعامًا أو نقودًا.

كانت تتجنب الأحجار والهراوات بيدَيها، لكنها سقطَت فجأة فوق جزع الشجرة وهي تترنح، فسارع الأولاد ببعثرة ما يحتويه موقد النيران من خرقٍ بالية وورقٍ مقوًّى.

كان الباعة يواصلون أعمالهم، وما هو إلا أسبوعٌ واحد حتى اختفت تمامًا من ذاكرة الناس في «آكية» صورة تلك المرأة المجنونة، المرأة الحامل، «سوروانك».

١١

أصبح إسحاق يقضي كثيرًا من الوقت في حجرته، وعرفتُ أن طعامه أصبح قليلًا، ولما كنا نراه خارجًا من حجرته كان ينظر إلينا بقوة لم نتعوَّدْها من قبلُ وهو يهزُّ رأسه بحزن، كان يبدو طبيعيًّا ولا شيء قد تغيَّر في مظهره، وكان الزائرون كالعادة يتردَّدون على المنزل في أوقاتٍ مختلفة من النهار والليل، لكنهم كانوا أقل عددًا وأحيانًا كانوا يعودون دون رؤية إسحاق وهم يقولون: إن الناظر نائم الآن، يجب أن نتركه ليستريح!

أصبحَت المسيحية المتوحشة على غير العادة تقضي وقتًا أطول في البيت، تاركة شئون الدكان للخادمة أو أولاد العم، وكانت تُمضي الوقت في الدخول والخروج من الحجرة تقدِّم لإسحاق الطعام أو الشاي، وكانا يتبادلان الحديث بصوتٍ منخفض، ولم يكن وقتهما كافيًا لمعاقبتنا على ما نسبِّبه من مضايقاتٍ قليلة، كأنا مشغولَين بما هو أهم.

ظلت مضايقاتنا تقل تدريجيًّا حتى لم يعُد ثمَّة شيء يمكن أن يعاقبونا عليه، تلاشت رغبتنا في الخروج أو التسكع في نزهاتٍ قصيرة ومشاركة زملائنا اللعب، وبعد الانتهاء من المدرسة كنتُ أسارع إلى المنزل لأن شعورًا غامضًا كان يجتاحني بأن أكون مع العائلة لأشاركهم المودة واللمسات الهادئة والنظرات الجميلة والأحاسيس البسيطة الرائعة.

دخلتُ ذات يوم حجرة إسحاق فشاهدتُ الزهور وتحديقه الدائم في الأشياء وعندئذٍ استطعتُ أن أفهم، كانت نظراته تصل إلى أبعد من جدران الحجرة، وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيتُه يهزُّ رأسه في ضيق ويحدِّث نفسه برقَّة قائلًا: «أوه يا عزيزي، يا له من موتٍ يثير الشفقة!»

سمعتُه كثيرًا وهو يردِّد نفس الكلمات، فلم يعُد يساورني شك فيما سمعت، وكانت ابتسامةٌ غريبةٌ ممتزجة بالأسف والضيق والترقب ترتسم فوق وجهه الهادئ، الذي كانت

ملامحه تُوحي بشيءٍ ما غامضٍ لم أستطع التعرُّف عليه، لكنني أدركتُ عن يقينٍ أن الابتسامة لا تعني بالضرورة الفرح والسرور.

كان يترنح أحيانًا برأسه ويميل بها ناحية اليسار ثم ناحية اليمين وهو يبتسم في رفق، غير أن عينَيه كانتا غارقتَين في التساؤلات والدهشة والغموض.

«نعم، يا له من موت يثير الشفقة!»

استدعاني ذات مرة إلى حجرته، وكان جالسًا فوق السرير حين طلب مني أن أجلس في مقعده بجوار الشباك، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها يبتسم كثيرًا وبإصرار.

بادرني بقوله: لا تدَعْ شيئًا يقهرك؛ فأنت رجل هذه العائلة، فإذا لم تكن قويًّا فما بالك بـ «تيني» والآخرين، إن تفكيرك يجب أن ينحصر في التعليم، ولا تهمل تعليمك.

تحيَّرتُ وأحسستُ بالتعب، ولم أستطع أن أفهم شيئًا، لكنني أومأتُ برأسي قائلًا: نعم.

قال: أنت الآن في مدرسة القواعد، وعليك بالاستمرار حتى تجتاز كلية الحكومة لتحصل على منحةٍ دراسية، إن كليات الحكومة لديها الكثير من المنح الدراسية لمن يستحقها، وهذا ما يجب أن تكافح من أجله، وليكن أحد أهم أهدافك أن تجد مكانًا في كلية الحكومة، هل تسمعني؟ إن الحكومة تساند التلاميذ، ودائمًا لا بد أن تفكِّر بذلك.

قلتُ له: أعدُك بذلك.

كان ما قاله هو ما يطمح فيه، وفجأةً غمَرني إحساسٌ مفاجئٌ وحادٌّ بأن انتقالًا هامًّا في حياتي لا بد سيحدث بعد ذلك الوعد الذي ألزمتُ نفسي به، وكان من العسير أن يقفَ أيُّ شيءٍ حائلًا بيني وبين الوفاء بذلك الوعد، الذي تم بين اثنَين في ظروفٍ غير عادية، لكنني حتى تلك اللحظة لم أكن قد فكرتُ في خطة بعينها.

هزَّ رأسه وكأنه عرف ما دار بذهني وأصبح مسرورًا ثم استطرد: إن الأشياء لا تحدث دائمًا كما تخطط لها؛ ففي الحياة كثيرٌ من خيبات الأمل، ودائمًا ما تُفاجئك أشياء غير متوقَّعة، هكذا هي الحياة، ونحن لسنا آلهة، هل تفهمني؟ إن الواحد منا لا يستطيع معرفة ما سوف يحدث في الغد، وهكذا يجب ألَّا نفعل شيئًا سوى التصميم والإرادة، الإرادة الخالصة، وكذا الإيمان بالله، فلا تُهمِل صلواتك، خاصة وأنك رجل العائلة، وأن الآخرين سيتطلعون إليك، سوف تكون مسئولًا تجاه نفسك وتجاه الآخرين فلا ينبغي أن تخيِّب ظنونهم.

هزَّ رأسه مؤكدًا: أبدًا، أبدًا، لا تخيِّب ظنونهم!

أصابتني الحمَّى ذلك المساء، وطوال الليلة واليوم التالي كان جسدي ساخنًا، ولم أكن خلال الهذيان أرى شيئًا سوى وجه أبي وأمي بالقرب من السرير، وعندما شُفيتُ في اليوم

الثالث سمعتُ المسيحية المتوحشة تقول: ماذا حدث؟ هل كانت الحمَّى سببًا لما دار بينك وبين أبيك من حديث؟

كنتُ أعرف أن ما قالته هو الصواب؛ فلقد أثقل حديثُه رأسي، لكنني قلتُ: لا شيء، لا شيء.

وفشلتُ أن أعرف كيفية أن يؤدي أحدُ الأشياء ببساطة إلى شيءٍ أخر! بسبب مرضي تأخر التقاط الصور، وبعد شفائي جاء المصور، وبدأ بهدوء في عمله، ارتَدَى إسحاق أجمل ثيابه، وتم تصويره بمفرده مع شجيرات الحديقة والزهور والأغصان الجميلة، ثم مع المسيحية المتوحشة، وبعد ذلك مع كلٍّ منا على حدة، وأخيرًا جمعَتْنا صورةٌ واحدة.

عاد إسحاق إلى حجرته وقد تغيَّرت ملامحه، وتم تصويره بين جدران الحجرة وهو جالس مرةً وواقف مرةً أخرى، دون أن تفارقه ابتسامته العريضة، ثم طلب من المصور الإسراع في الانتهاء من الصور الليلة.

تعجَّب المصور واعترض قائلًا: لا أستطيع إلا غدًا مساء.

عدتُ إلى السرير متعبًا؛ فثمَّة آثارٌ خفيفة كانت متبقية من الحمَّى راحت تزول تدريجيًّا، وبدأت أنظر شيئًا فشيئًا عودة الروتين القديم؛ الضوضاء، الابتهاج والسرور، النكات والمرح، زيارات الحجرة الأمامية وغياب المسيحية المتوحشة الدائم من المنزل وبقائها في الدكان.

أصبح المنزل طبيعيًّا، وعادت الأشياء إلى ما كانت عليه، ففكرتُ أن كل ما حدث كان فقط من تأثير هذيان الحمَّى.

كنتُ أراقب إسحاق فأبصرتُه متحيرًا بشدة، كان متعجلًا الحصول على الصور، وها هي الآن معلقة فوق الحائط في إطاراتٍ من الخشب.

عُدتُ بذاكرتي إلى الخلف قليلًا، فعرفتُ أن ثمَّة شيئًا قد تأجل، وأحسستُ بأنني أقدِّم الشكر والامتنان للقوى غير المرئية.

١٢

كانت مدرسة «أبيوكوتا» الثانوية عالمًا جديدًا لم أتعوده من قبلُ، كانوا كبارًا، وكان من الصعب التفرقة بينهم وبين المدرسين إلا بالقمصان الزرقاء والزي الكاكي، أوه، كان الأب على حق، إنهم يبدون كالرجال، بل إن بعضهم كذلك فعلًا.

كانت كتبي الجديدة جميلة وشيقة، وكذا الكراسات والأقلام الرصاص ونشَّافة الحبر وبعض الأدوات الأخرى، لكنني فقدتُ نصف هذه الأشياء في الأسبوع الأول، وكانت الآلة الحاسبة المتلألئة هي أفدح الخسائر، وأيضًا كان الفرجار والمربع والمثلث ونصف الدائرة الشفافة ذات العلامات الغريبة، آه، إن عقاب الخسارة سيكون مؤلمًا.

سرق الولد الكبير الحقيبة بعد أن تجاهلتُ كل النصائح ولم أحفر اسمي على الحقيبة المعدنية المسطحة، كانوا جميعًا يعرفون أن الولد الكبير هو الذي سرق الحقيبة، وكذلك كان هو يعرف بأننا نعرف.

لاحظتُ أفعالًا وتصرفاتٍ غريبةً في ذلك العالم الجديد، كان وسطًا مليئًا بالحكايات ولم يكن معقولًا أن يسرقوا أدواتي الهندسية هكذا أمامي وأثناء الدرس.

رحتُ بالغريزة وحب الاستطلاع أدرس زملائي الجدد عن قرب، ابتكرتُ طرقًا مختلفة للحياة بينهما، وكنت أتطلع بشغف لزيارتي القادمة إلى «إيسارا» لمقابلة الرجل العجوز العالم بالأمور، وشعرتُ بوجوب معرفة زملاء مدرسة «أبيوكوتا» القادمين من منازلهم من أجل العلم والمعرفة.

قبل انتهاء العام لم أكن في حاجة إلى ملاحظات المسيحية المتوحشة كي أعرف بأنني كنتُ أجنح كثيرًا إلى أحلام اليقظة.

عند التحاقي بالمدرسة كان «داودو» مسافرًا في بلاد الإنجليز، كمسئولٍ تربوي عن غرب أفريقيا، فتولى السيد «كوفوريجي» مدرس الرياضيات إدارة المدرسة، كان معروفًا

باسم «وي، وي»، ولم يكن هذا الاسم يعني شيئًا بالنسبة لنا حتى أصبح مديرًا للمدرسة، وراح يتجوَّل بحُلَّته الأنيقة في أرجاء المدرسة، كان ذا صوتٍ رفيع يُحدِّق بعينه هنا وهناك، وكانت قامتُه كالدجاجة التي تلتقط المحصول حين يظهر فجأة في الفصول لمتابعة الدرس والعصا دائمًا في يده.

كان «وي، وي» نشيطًا يحب النظام ولا يكُف عن المتابعة.

مدرسة «أبيوكوتا» الثانوية، وعنبر النوم الكبير، والمخابئ، والطرقات، والأشجار الكبيرة والصغيرة حول الملاعب، وتلك السياج الكئيبة التي تفصلنا عن العالم الخارجي، كانت الرغبة في تحطيم تلك السياج جامحة، وكذلك الرغبة في الهرب تنتابني أثناء فترات ممارسة الرياضة وفترات الراحة فقط، لكنها لم تكن تتولد في الفصول أو في صالة الاجتماعات أو في مكتب مدير المدرسة.

كان المشرف يواصل جولاته الليلية فتصيبه الحَيْرة أحيانًا حين لا يجد الطلبة، أو يبصر سريرًا خاليًا من صاحبه.

كان الولد الكبير الذي سرق حقيبة أبيه، كان أبوه ثائرًا حين جاء إلى المدرسة متوجهًا إلى مكتب المدير، وما إن عرف الولد بوجود أبيه حتى حزم حقيبته وهرب دون أن يعود مرةً أخرى، ولقد سمعنا فيما بعدُ أنه لم يعُد إلى المنزل، ذهب إلى «لاجوس»، والتحق هناك بإحدى الوظائف، وكان من وقتٍ لآخر يأتي إلى المدرسة القديمة مرتديًا أحدثَ الأزياء وأفخمَ الملابس، مقدمًا لزملائه العون، جاء في يومٍ ما إلى المدرسة ليقول وداعًا؛ لأن والده سيرسله للدراسة في إنجلترا.

كانت الفضيحة الكبرى تتمثل في الفتاة الحامل، وكان شيئًا عاديًّا أن يتسبب «أ. كينزي» فيما حدث للفتاة، لكنها المرة الأولى التي يصمِّم فيها والد الفتاة على طرد الجاني من المدرسة، اهتمَّت الإدارة بالأمر، وتناقشَت مع والد «أ. كينزي» الذي كان من عائلةٍ هامة في «أبيوكوتا»، كان «أ. كينزي» محبوبًا من الجميع ومتأنقًا حتى في زي المدرسة، وكان يمشي بخُيلاء، مما جعل الأولاد الأصغر سنًّا يقلدونه بطريقةٍ لطيفة، كان يختال في سيره فوق الرصيف وكأنه يعلن عن اسمه، أو يعلن عن وصوله، لكن السيد «كوفوريجي» كان يجد صعوبةً في طرد أي طالب، وخاصةً إذا كان في عامه النهائي، وكان يرى أن يصبح العقاب شديدًا من أجل العِبْرة.

كان العقابُ شديدًا في مدرسة «أبيوكوتا»، ستة وثلاثون ضربة.

اصطفَّ الحاضرون في الصف الأمامي من القاعة العمومية، وصعد السيد «كوفوريجي» المنصة معلنًا عن سبب الاجتماع، ثم عبَّر عن الصدمة التي أصابت المدرسة

كلها من جرَّاء تلك الفضيحة، وما أصاب عائلة الفتاة من تعاسة، أعلن عن اسم الجاني، وأمره بالوقوف والمجيء إلى المنصة، ثم اتجه ناحيته، وأخبره أن يختار بين طرده من المدرسة وتلطيخ اسمه للأبد أو ضربه ستةً وثلاثين ضربة بالعصا أمام الحاضرين، اختار الرجل الصغير الضرب، فأصدروا إليه الأمر بالانحناء حتى يلمس أصابع قدمه، وكان أحد المدرسين يعُد الضربات بينما «وي، وي» بدأ في تغيير العصا عند نهاية الاثنتَي عشرةَ ضربةً الأولى دون أن تتحرك عضلةٌ واحدة من «كينزي»، وكان «وي، وي» أثناء ضربه الاثنتَي عشرةَ ضربةً الثانية يمسح العَرقَ المتصبِّب فوق وجهه، وبدأَت ضرباتُه تفقد قوَّتها عند بداية الضربة الرابعة والعشرين، فشعَرتُ أن «كينزي» سيدخل التاريخ، كانت كلُّ الأنظار متجهةً إلى جسد «كينزي»، ولم يستطع أحدٌ أن يصدِّق أنه تحمَّل أربعة وعشرين ضربةً فوق ظهره وأردافه بدون أن يغيِّر ولو مرةً واحدة من وضعه، أو بدون أي رعشة في عضلاته.

تعجبتُ وقلت لنفسي: ربما يحشو جسده بشيءٍ ما، لا بد أنه يضع شيئًا تحت ملابسه.

سارع «وي، وي» برفع ظهره، وشد بنطلونه للتأكد من عدم وجود أي شيء، ثم واصل ضرباته الأخيرة بكل قوَّته، وكان العرق يتدفَّق منه بغزارة حين نهض «كينزي» بهدوء وهو ينحني برشاقة مرتلًا بعضَ الأناشيد الدينية.

قال «كينزي»: شكرًا سيدي.

فدوَّت القاعة بالتصفيق والتهليل، دق المدير بيده فوق المكتب دقاتٍ قوية وأمر بالهدوء بينما خطف مساعده الجرس وظل يلوِّح به بقوة، فأضاف صوتًا جديدًا إلى أصوات التصفيق والابتهاج، كانت الأصوات تتصاعد شيئًا فشيئًا في موجاتٍ متلاحقة، وحين ساد الهدوء حدَّق «وي، وي» في الجميع، وتمتم قائلًا: Eyin omo Satani،[١] إن الخجل لا يصلح البلهاء، إنه Awon omo alaileko![٢] اخرج من هنا.

انصرف الجميع وتفرقوا.

– عاد «وي، وي» مدرسًا للرياضيات بعد عودة «داودو» من مهمته في إنجلترا، استقبلَه الناس في «أبيوكوتا» بالترحاب، كان يمتطي حصانًا أبيض في «آكية» في طريقه

[١] أبناء شياطين.

[٢] نقص في التربية.

لكنيسة القديس بطرس، وكان نافخو البوق يُحيطون به، وكذلك حاملو الطبول وصفوف من الكشافة، مما يوضح أهميته غير العادية بعد أن أصبحَت أعماله ومآثره في إنجلترا معروفة على نطاقٍ واسع، كانوا يتحدثون عن كفاحه ضد الخطط البريطانية التي طالبت بإنشاء جامعةٍ واحدةٍ فقط لمستعمرات غرب أفريقيا، وكيف أنه أصرَّ على إنشاء جامعة في كل مقاطعة.

لم يهتم «داودو» بغواصات هتلر التي لم تفرِّق بين السفن الحربية وغيرها من السفن، وعاش بعد قنابل هتلر الشيطانية، وعبَر البحر مرتَين برغم الأخطار، كان يمتطي الحصان في «آكية»، وكان وجوده يبعث على الرهبة حتى لضابط المقاطعة، وعند مروره في أي مكان كان الرجال ينبطحون، وكانت النساء تركع، ويبدَءون جميعًا غناء النشيد الوطني بمساعدة مدرس الموسيقى.

دائمًا ما كنتُ أغنِّي ذلك النشيد في المنزل.

كان «داودو» بارعًا في إشرافه على إقامة النشيد الوطني في المدرسة، كان يبذل مجهودًا كبيرًا في المعالجة الموسيقية حتى يتصبَّب العرق من تحت إبطه على شكل دائرة تأخذ في النمو إلى أن تصل صدره، كان بسهولة يلتقط بأذنَيه أي صوتٍ خطأ، ويعرف الصف المخطئ أو الفصل المتسبِّب في الخطأ، فيعاقبهم بضرب العصا.

بعد ظهر أحد الأيام كنتُ أعبث بالبيانو، فسألني «داودو»: لماذا لا تتعلم العزف على البيانو جيدًا؟

كنتُ خائفًا من عصاه حين كذبتُ عليه قائلًا: إن أبي قد بدأ في تعليمي.

كانت مجموعة من النساء تتجمع عند السيدة «كوتي»، وكن يناقشن مشاكلهن وما يتعرضن له في المنازل، وكانت المسيحية المتوحشة واحدةً من أعضاء تلك المجموعة، كنتُ أنتظرها بعد المدرسة لأعود معها، وكن يتجاهلن وجودي وهن يتحدثن ويشربن الشاي، كن زوجاتٍ لرجال الأعمال والمدرسين والصيادلة والقساوسة، وجميعًا كن مسيحياتٍ يتحاورن أحيانًا حول أسعار السلع والبضائع والنقص الناتج فيها، وكانت مسئوليات الخدم تشغل مساحةً كبيرةً في أحاديثهن، وكثيرًا ما كن يكرِّرن: إن الخدم لا يعرفون ما يفعلون، ولا يفهمون وضعهم في المجتمع، وبعضٌ منهم لا يحسن ترتيب الأشياء أو رعاية الأطفال.

كان «داودو» يتجول ذات يوم بالقرب من تلك المجموعة حين توقف مقاطعًا: أنتن معشر النساء لديكن أهدافٌ سامية، ولكن لا يبدو أنكن تعرفن كيفية القيام بها، إنكن

تجتمعن لبعض الوقت ولا أرى سوى oníkaba[٣] لكن من يحتاج للمساعدة منكن حقًّا هم aróso[٤] وأنا لا أرى أحدًا منهم، يجب أن تَنسَوا مشاكل المجتمع الراقي وتفكِّروا بالـ aróso، ادعوهم للمشاركة؛ فهم فقط الذين يحتاجون المساعدة.

قال «داودو» ذلك، ثم راح يواصل جولاته.

تطلَّعَت السيدة ذات الشعر الأبيض نحوهن بوقار، وقالت: إن «داودو» لم يقل غير الحقيقة، وعلى كل واحدةٍ منا أن تُحضِرَ معها في المرة القادمة واحدةً على الأقل من الفقيرات.

---

[٣] النساء اللاتي يرتدين الفساتين الراقية.

[٤] الناس الذين يرتدُون اللفائفَ والأغطيةَ الفقيرة.

١٣

انضَم كثيرٌ من النساء إلى اجتماع المجموعة، واصطحبَت المسيحية المتوحشة صديقتَها ماما «أدوني»؛ فلم تعُد صالة طعام السيدة «كوتي» كافية لاستقبالهن، فانتقلن إلى الفِناء.

كانت رؤية الفناء يسيرةً من نوافذ الشرفة الفسيحة؛ حيث استطعتُ التعرف على النسوة اللاتي احتشدن في الاجتماع كأسراب القطيع، كنتُ أتطلع من النافذة ممعنًا النظر لَمَّا تذكَّرتُ «إيسارا» والباعة المتجولين والسيدة التي كانت ترافقنا وتضع البضائع تحت تصرُّفنا، كانت الخلافات دائمًا تنشب بين «بيير» زوجة «كوتي» و«ماإجبور» ذات الشعر الأبيض والمسيحية المتوحشة، وأحيانًا كانت إحدى النساء تغني فجأة أو تبدأ في سرد قصةٍ بذيئة، وكان بعضُهن يصل مبكرًا لإعداد الطعام.

كان بمقدور «داودو» أن يستمع إلى ما يحدث في الاجتماع من خلال حجرة نومه ومكتبه، لكنه لم يكن يتحرك نحو الفِناء إلا عندما يرى ضرورة للتدخل.

قال ذات يوم: هل تعرفن متاعب الفقراء الحقيقية؟ إنهم غير متعلمين، ولا يعرفون القراءة والكتابة؛ ولهذا يستغلهم الناس، ومن هنا يجب أن نبدأ، فلنبدأ بالنساء الفقيرات، نصف ساعة فقط من وقت الاجتماع، نصف ساعة من كل اجتماع تكفي لأن تصبح كل نساء «إيجبالاند» متعلماتٍ قبل نهاية العام، هكذا أرى؛ فالجهل شيءٌ بشع.

ابتسم، ومضى يواصل تجواله.

سيطرَت الفكرة على النساء المجتمعات، وسرعان ما بدأن في التطبيق، أحضرن الألواح والأقلام الرصاص والكتب والكراسات.

كنا نرى من أعلى النافذة ظهورًا تنحني في تركيزٍ شديد، ورءوسًا ذات أغطيةٍ مختلفةٍ يحشوها الشعر الأبيض.

كن جميعًا يعملن في هدوء مع بعض الضحكات المفاجئة، الناتجة عن مزاح المسيحية المتوحشة، التي كانت تمُد ذراعها وتشير إلى لوح الكتابة معلنةً بصوتٍ مرتفع: هكذا، انظرن، اكتبن هكذا، لا، لا، يجب أن يكون القلم مستقيمًا، والآن فلترسمن شيئًا كالطريق المنحني، لا، لا، ليس كذلك، ألا تعرفن كيف تكون بطن المرأة الحامل؟ هكذا b، البطن المنتفخة أسفل الخط المستقيم.

كانت ماما «أدوني» أو السيدة ذات الشعر الأبيض تشُد المسيحية المتوحشة بعيدًا؛ فلم تكن تعجبهن تلك الطريقة في الدرس، وعندئذٍ كان الفناء يمتلئ بالضحك.

كانت إحداهن تقول: أوه، أنتِ يا زوجة المدرس بارعة في إفساد التلميذات.

كانت التلميذات حاذقات، وكثيرًاتٌ منهن كن في عمر الشباب يأتين سيرًا على الأقدام من «إيجبين» حتى «آكية»، وكان ذلك يكلِّفهن مجهودًا كبيرًا، غير أنهن كن يصلن قبل الأخريات، ويساعدن في ترتيب الطاولات والكراسي، ثم يكنسن الفناء.

كان «دولوبو» و«كوي» أكبر أبناء «كوتي» يشاركان في التعليم، ومن مكاني المعتاد في النافذة رأيتهما يتلاعبان بالحروف والكلمات، ويكتبان بطريقةٍ خطأ، هتفتُ بأعلى صوتي من النافذة منبهًا عن الصواب، فهتف الجميع من الفناء قائلين: هل أنتَ كسول؟ لماذا لا تأتي وتشاركنا؟

هبطتُ السلم بسرعةٍ خاطفة، وأصبحتُ بالصدفة مدرسًا في تلك الحلقات، اكتشفتُ أن أكثر النساء من القرى البعيدة المنعزلة، فعرفتُ سر إقبالهن الشديد وذلك الشغف المرتسم على وجوهن من أجل المعرفة.

توقفَت النساء عن الحضور مبكرًا حتى اللاتي يأتين من أماكن قريبة، وأحيانًا كن لا يأتين قط؛ فقد كان وقت الحصاد، ظن القادة أن المزارع قد صرفَتْهم عن الدرس، لكنهن عُدن مرةً أخرى، ورحن يقدمن الاعتذارات.

قالت إحداهن: لقد قبض عليَّ رجال الضرائب.

ثم توالت الأصوات:

– لقد أخذ Parakayi[1] نصفَ إنتاج مزرعتي لضريبة السوق، فذهبتُ إلى نائب المجلس المحلي طلبًا للمساعدة.

[1] مراقبو السوق.

– كنا في الطريق إلى المزرعة حين أوقفَنا البوليس، وطلَب جزءًا من كل ما معنا كضريبة.

– حاولتُ أن أهرب من الرجل ذي الزي الغريب فضللتُ الطريق، ولولا رعاية الله لكنتُ حتى الآن أتخبط في الغابات.

– إن أولئك الرجال بلا قلب، إنهم قساة ينظرون إلينا كما لو أنهم لم يرَوا امرأةً من قبلُ.

– أمضينا الليلة في قسم الشرطة؛ حيث حجزوا على كل بضاعتنا حتى نأتيهم بأوراق الضرائب، لم نذهب مرةً أخرى إلى السوق بعد أن احتجزوا كل البضائع؛ فكيف إذن نستطيع أن ندفع لهم بدون أن نبيع؟

– إنهم أولئك الرؤساء الذين يرسلون adana[٢] للقيام بأعمالهم القذرة؛ لأنهم لا يستطيعون فرضَ ضريبة على إنتاج المزرعة.

– لا، إنه آلاك، إنه القصر.

– إنه الرجل الأبيض، إن ajele[٣] هو الذي يُصدر الأمر، إنه الرجل الأبيض في لاجوس، أما الآخرون فهم عبيدٌ للرجل الأبيض في لاجوس.

قالت «كيمبيري»: كفي.

تأملتُها قليلًا، وتذكَّرتُ أن هذه المرأة تحمل اسمًا مسيحيًّا، إن اسمها «إميليا»، لكنني كنتُ أسمع المسيحية المتوحشة و«بيير» يشيران إليها باسم «كيمبيري»، وعندما أشرتُ إليها بنفس الاسم صفعَتْني أمي بظهر يدها بقوة، واعترضَت «بيير» قائلة: لا تكرِّر هذا الاسم مرةً ثانية.

ثم أضافت: إن «كيمبيري» لقبٌ خاصٌّ تطلقه عليها زوجات الحي الذي تقطن فيه، وحتى إنا وأمك لا ندعوها بهذا اللقب إلا عندما نكون وحدنا.

كرَّرَت «كيمبيري» قائلة: كفى.

أُصيب الجمع بذعرٍ شديد، وبدأ السخط والتذمر، ثم استطردَت «كيمبيري»: عن أي شيء تتحدثن؟ وما هذا الذي أسمعه؟ هل فقدَت نساء «إيجبالاند» حرية السير في شوارع أرضهن؟ ألا يستطعن ممارسة حياتهن بدون مضايقة أولئك مصاصي الدماء؟

---

[٢] الوكلاء المنتدبون لمراقبة الفلاحين ونساء السوق.

[٣] الوكيل الإداري أو ضابط المنطقة.

لوَّحَت بيدها ثم خاطبَت «بيير» زوجة السيد «رانسوم كوتي»: هل سمعتِ؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟ ها نحن نُعلِّمهن القراءة والكتابة للعناية بمنازلهن وأطفالهن، والآن لا يستطعن الحضور إلى هنا بسهولة، إن الشوارع مليئة بمن يعترضهن ويقف حائلًا بينهن وبين الحضور، يجب أن نوفِّر لهن الحماية، على أي شيء تكون الضريبة؟ ماذا يتبقى لهن بعد إطعام الأولاد وتوفير زي المدرسة ودفع مصاريف المدرسة؟ إذن، لماذا وكيف يدفعن الضريبة؟

انطلقَت الأصوات هادرةً فطَلَبَت «كيمبيري» الهدوء، واستطردَت: لا مزيد من الضرائب، لنخبرهم بذلك.

علت الأصوات بالقبول والاستحسان، ثم اختاروا السيدة «كوتي» لمهمة تقديم طلب إلغاء الضرائب إلى ضابط المقاطعة وقصر آلاك في «أبيوكوتا».

تذكَّرتُ «إيسارا»، وتلك المرأة التي تسير أربعين ميلًا محمَّلةً بالبضائع فوق ظهرها وكتفها وكأنها omolanke[٤] فأصبحَت إهانتُها هي ومثيلاتها تُعَد إهانةً شخصية لي، وقرَّرتُ قبل أن أغرق في النوم أنني عندما أصبح كبيرًا لن أترك الرجال الحكوميين الذين يرتدون الكاكي يأخذون بنسًا واحدًا كضريبة من راتبي الكبير.

كانت مجموعة النساء تجتمع في الدور العلوي، واستمر الاجتماع حتى وقتٍ متأخر، فرحتُ في نومٍ عميق فوق الدكَّة في حجرة الطعام، وحين استيقظتُ في الصباح التالي وجدتُ نفسي فوق السرير في فصل السيدة «كوتي»، وسمعتُ أثناء الإفطار لأول مرة التعبير التالي: «اتحاد نساء إيجبا».

بعد إعلان الاتحاد بأيامٍ قليلة سافرَت «بيير» إلى إنجلترا رغم الحرب لحضور بعض المؤتمرات الدينية، أو لمهمةٍ خاصةٍ بالمستعمرات، فأصبح دكان المسيحية المتوحشة هو البؤرة التي تتجمَّع عندها النساء من كل أركان «أبيوكوتا»، وصارت ماما «أدوني» تتجول في كل وقت وبكل مكان كالمارشال، بصحبة النساء اللاتي يأتين من مختلف الأماكن القريبة والبعيدة، ومختلف قطاعات المدن والقرى البعيدة التي لم يسبق أن سمعتُ عنها قط.

كنتُ دائمًا أهرب من العمل في الدكان، أما الآن فلم يكن من السهل الابتعاد عنه، كانت بعض النساء يأتين إلى الإرسالية لأول مرة، فكنت أقفز من فوق كتبي وأرافقهن إلى الدكان،

[٤] العربة المجرورة أو المدفوعة.

وفي الطريق كن ينظرن إليَّ ويتعجبن من ذلك الولد الكثير الأسئلة، لكنني كنتُ أواصل تساؤلاتي دون خجل.

قلتُ لذات الكتف المنحني من حمل البضائع: لماذا لا تمتطين جياد الرئيس في «أوتوكو»؟ إن الجياد تستطيع أن تحمل البضائع!

ضحكَت المرأة، ووعدَتني أن تناقش الأمر مع ماما «أدوني» في الاجتماع المقبل.

ساد الهدوء فترةً طويلة، ولم يخبرني أحدٌ عن موقف النساء من الضرائب هل توقفن عن الدفع أم لا؟ وكنتُ — رغمًا عني — أستمع إلى المناقشات بين إسحاق والمسيحية المتوحشة، التي كانت تطلب منه النصيحة في كثيرٍ من المشاكل، كانت الحركة النسائية تزداد كل يوم، فأصبحَت المسيحية المتوحشة تسافر إلى مناطق مختلفة لتلتقي بالنساء وتستقبل القوم والعشائر وتعقد الندوات، كانت قبل أن تغادر تُنبهني إلى ضرورة الاهتمام والعناية بالدكان، وغالبًا ما كنتُ أغلقه عند غروب الشمس، لكنها كانت تعود متأخرةً بعد موعد الوجبة الأخيرة، وتواصل حديثها مع إسحاق عن خطط الحل العاجل لمشاكل أولئك الضحايا من النساء.

كنتُ شغوفًا بتناول نصيحة إسحاق وإعطائها لأمي في الدكان، وأحيانًا كنتُ أفتح الورقة وأقرؤها لمعرفة أهمية النصيحة؛ فلم يكن من السهل أن أتحكم في شغفي وحب استطلاعي، الذي كان ينمو ويتفجر برحيلي مع المسيحية المتوحشة بصحبة المتظلمات وصاحبات الشكوى.

سافرتُ خارج «أبيوكوتا» للمرة الأولى بدون أبي أو أمي، كان أبي يقوم بإعدادي للالتحاق بكلية الحكومة في «أبادان»، وبعد أن اجتزت الامتحانات بأسابيعَ قليلة جاءني خطاب استدعاء للمقابلة في «أبادان»؛ حيث تعرفت على «أوي» وبدأنا نخطط لمغامراتنا الكبيرة التي سنقوم بها معًا، كانت ماما وإسحاق يعرفان تمامًا بأنني لن أتوقف عن المغامرات وجلب المتاعب فاقترَحَا إرسالَ رفيقٍ معي.

قلتُ لهما: تذكروا أنني في العاشرة من عمري الآن، ولقد أمضيتُ ستة أشهر من التجربة في مدرسة أبيكوتا الثانوية دون أن يحدث شيء.

كان الولد الآخر أكبر مني، لكن والديه وافقَا على سفره وحيدًا بعد أن عرفا أنه سيذهب مع ابن الناظر، كان «جوزيف» مرشحًا لمرافقتي فناقشتُ الأمر معه قائلًا: إن «أوي» سيكون معي، ولقد اعتبَرَني والداه ضمانًا كافيًا لسلامته وأمنه، أفلَيسَ هذا كافيًا لأن أعتني بنفسي؟

نظر «جوزيف» نحوي بشفقة، وقال: ليت الرجال البيض في مدرستك الجديدة يكونون من المحبين للأولاد الكثيري الجدل والنقاش؟!

أُعلنَت النتائج النهائية، وكان اسمي في القائمة، لقد قبلوني ولكن ليس للمنحة الدراسية، فكان ذلك يعني أن أنتظر عامًا آخر ومحاولةً أخرى.

فكَّر «جوزيف» مدةً طويلة، وكانت تطارده الأفكار السوداء حين ذهب للمسيحية المتوحشة، وقال: ماما، أرجوك أن تتوسلي إليه ألا يتناقش كثيرًا مع الرجل الأبيض، ويجب أن يقلِّل من أسئلته؛ فقد يقبلون ذلك منه لكونه ذكيًّا وماهرًا، ولكنني لا أعتقد أنهم سيتركونه يمزِّق رءوسهم إلى قطعٍ صغيرة بأسئلته.

كان نجاحي في المقابلة وسفري بمفردي إلى «أبادان» يمثل أملًا كبيرًا بالنسبة لي، لكن الرغبة سرعان ما توارت في مؤخرة رأسي، حين تذكَّرتُ أنني سأفتقد الإرسالية التي نعيش فيها وحدائق الفاكهة وجداول الماء والمزارع وبعض الألعاب الصغيرة.

كان حب استطلاع «رانسوم كوتي» وفضوله بلا حدود، قال لي: إن المدرس الأبيض لا يستطيع غرس الأخلاق في التلميذ وتنمية شخصيته، لكن مدرسة مثل مدرسة أبيكوتا الثانوية تفعل ذلك، كيف ترى أولئك المدرسين البيض؟

قلتُ له إننا لم ندرس شيئًا حتى الأن؛ لأننا ما نزال في مرحلة الاختبارات والإعداد لامتحانات القبول.

فأجاب: نعم، لكنهم يتحدثون إليكم، وتتحدثون أنتم معهم، فما هو انطباعك عنهم؟

– يبدو أنهم ظرفاء، لكنني ما زلتُ أجد صعوبة في فهمهم، نحن جميعًا لا نستطيع أن نفهمهم بسهولة؛ لأنهم يتحدثون من أنوفهم.

– سوف تعتاد على ذلك كما حدث لي، لقد عرفتُ الرجل الأبيض في وطنه، إن بعضًا منهم ليس شيئًا ولكنهم كمدرِّسين، لا، أنا لا أعرف لماذا يريد «آيو» أن يرسلك إلى مدارسهم!

قلتُ دون تفكير: إنني الآن أُحب المكان.

تلألأَت عيناه وقال: هل يروقك المكان حقًّا؟

– أعتقد أنني أحبه يا عمي، أو يبدو أنني سأحبه.

نظر إليَّ كما لو أنه يراني لأول مرة، ثم قال وهو يحدِّق فيَّ: حقًّا، لكنك لم تمكث عامًا كاملًا هنا حتى تستطيع أن تقرِّر.

قلتُ بإصرار: أنا أحب المدرسة، وأتمنَّى لو استطعتُ الحصول على المنحة الدراسية.

قال بغضب: إنني أحاول فقط أن أجد ميزةً واحدة، ولكن لا يهم، إن «آيو» يتمنَّى حصولك على المنحة، وسيكون ذلك شيئًا حسنًا بالنسبة له، لكنك ستراني في كل إجازة، وعندئذٍ أريد منك معرفة تفاصيل الدراسة، وكيفية قيامهم بالتدريس.

وعَدْتُه أنني سأفعل، فاستطرد قائلًا: سيُعلِّمونك أن تقول «سيدي»، إن العبيد فقط هم من يقولون «سيدي»، لكنها أحد أساليبهم في تنمية شخصية الأولاد في هذا السن، «سيدي»، السيد، السيد، السيد! شيءٌ سيئ للغاية، وعلى أية حال فإنك سوف تأتي لترانا في الإجازة.

تذكَّر شيئًا آخر فقال: إنهم أيضًا لا يستخدمون العصا، وهذا خطأٌ كبير.

– لا أعتقد أيها المدير.

– ألا تعتقد بأهمية العصا في تكوين الشخصية؟

– لا، أيها المدير.

– أوه عزيزي، أوه، هل أنت ابن «إينيولا» الوحيد بين الناس؟

– لا، أيها المدير.

تنهَّد قليلًا وهزَّ رأسه مرةً أخرى بحزن واكتئاب، ثم واصل سيره نحو الطرقة.

– كانت «بيير» في إنجلترا، وكانت الصحف في الصباح تشير إلى أنشطتها هناك؛ حيث قالت في أحد المؤتمرات إن نساء «إيجبالاند» يعانين من الفقر وكيف أنهن تعيسات، أفردَت إحدى الصحف مقالًا طويلًا عن ادعاءاتها، وهاجموها لقول مثل تلك الأكاذيب، حتى اعتبرها البعضُ خائنةً لنساء وطنها، ودعا المقال الشعب البريطاني لزيارة «أبيوكوتا» بأنفسهم لرؤية النساء المتيسرات ومعرفة المستوى اللائق الذي تعيش فيه نساء «إيجبا»، والتأكد من وفرة المستشفيات ونظافة الشوارع وجودة المساكن.

قاموا بتحذير السيدة «رانسوم كوتي» بالابتعاد عن شئون النساء وعدم الحديث عن أحوالهن، وأن ذهابها لإنجلترا لا يعني أن تتدخل فيما لا يعنيها؛ لأن ذلك الشيء خاصٌّ بالرجل الوحيد الذي يقوم بأعمال الخير، إنه الرجل في قصر «أبيوكوتا» الذي يعتبر أبًا لكل الناس في «إيجبا».

نظَّمَت المجموعة اجتماعًا توافدَت إليه النساء من كل صوبٍ للاتفاق على ردٍّ مناسبٍ لذلك الهجوم، كانت نفسُ الصحيفة قد كتبَت تحت توقيع باسم «أونلوكر» تقول بأن الكاتب يؤيِّد كل ما أعلنَت عنه «بيير»، ولفَت انتباه القُراء إلى الأكواخ والعشش العديدة المنتشرة في «إيكيرودو»، و«إيبيريكودو»، و«آجو»؛ حيث تعيش النساء كالفئران.

تناولَت «ماإجبور» ذات الشعر الأبيض الصحيفة، وقرأَتها على الجميع فانطلقَت صيحاتُ الاستحسان في الهواء، ثم جاء دور «كيمبيري» في الكلام: إن صحيفةً أخرى كتبت تقول إنكن جميعًا مليونيرات، كما يقول أولئك الأوباش في القصر الذين جمعوا ثروةً من jibiti[٥] وما زالوا يختالون داخل وخارج القصر موشَّحين بالحلي والذهب، لقد نسُوا أنهم يعيشون بين أولئك الذين لا يستطيعون إطعام أطفالهم مرتَين في اليوم، إن «بيير» على أية حالٍ تُوشِك على العودة، وعندئذٍ سيعرف شعب «إيجبا» من يكون odale[٦] الحقيقي.

كان «داودو» يتجوَّل وسط عاصفة من الضحكات المتتالية قابضًا بيده على نُسخةٍ من كلام «أونلوكر» حين قال: ماذا يجب أن تفعلن أيتها النساء؟

أَقترِح طبعَ مئاتٍ من النسخ تكون معكن لتوزيعها في الميناء عند مقابلة «بيير»، ارتفعَت أصواتُهن بالموافقة، ثم بدأن الاجتماع من جديد بينما راح «داودو» يواصل تجواله، لكنه عاد بعد عشر دقائق قائلًا: ألف نسخة، نعم ألف نسخة لكل من يهبط من الميناء، لكل الناس خاصةً لأولئك القادمين للقصير.

أبدَت النساءُ استحسانًا للمرة الثانية، وارتسمَت على وجوههن علامات الرضا والقبول، ولم يكد «داودو» يصل إلى نهاية الطريق حتى عاد مرةً أخرى بنشاط وسرعة، وقال: عشرة آلاف نسخة، نعم، عشرة آلاف نسخة، وسوف نجد النقود بطريقة أو بأخرى، عليكن ببعثَرتها في الهواء لتنتشر رغم أنف الحكومة الاستعمارية في لاجوس، نعم، عشرة آلاف نسخة.

أوشكَت «بيير» على العودة، فراح «داودو» يُعِدُّ نفسه للترحيب بزوجته، ولم ينسَ أي شيء، طلب أباريقَ ضخمةً للماء لرش الإرسالية كلها بالماء، وتناقَش مع المسيحية المتوحشة وقيادات المجموعة الأخرى عن كيفية توفير الطعام لكل الراغبين في الحضور إلى الإرسالية.

فكَّرتُ فيما يدور برأسه، واعتقَدتُ أن «داودو» كان حريصًا على أن تكون عودةُ زوجته للوطن انتصارًا كبيرًا يبدأ من لاجوس، حتى يعرفَ أولئك الذين ينتقصون من شأنها من هو الخائنُ الحقيقي.

---

[٥] الغش والخداع والاحتيال.

[٦] الخائن.

١٤

بعد عودة السيدة «كوتي» أقاموا مهرجانًا كبيرًا في مدرسة «أبيوكوتا» والمنطقة المحيطة بها، أصدر «داودو» الأمر بإحضار مئاتٍ من المصابيح، وكانت قوائم الخيزران منتصبةً بامتداد الطريق، جهَّزوا مطبخًا كبيرًا حول الحقول مضاءً بالمصابيح، وكذلك كانت عوارض الأعمدة الكبيرة متلألئة بالإضاءة التي انعكسَت على المقاعد والموائد في الحديقة، فبدا الليل وكأن ملايين الحشرات المضيئة العملاقة قد غزت الإرسالية.

كانت الصواني الضخمة والأواني والأطباق والسلال تتحرَّك عبْر الضوء محمَّلة بالطعام، وكانت الأغاني تتردَّد في المكان، وكلما ظهَر «داودو» أو «بيير» في أي جزء من أجزاء الإرسالية كانت الهتافات تردِّد: «داو... و... و... و... و... بيـ... يـ... يـ... يـ...»

تدفقَت مجموعات النساء إلى الإرسالية دون انقطاع، وكانت دقات الطبول تتقدم بعض المجموعات التي سرعان ما انتشرت في المكان، معبِّرةً عن اختفائها بقدوم «بيير» بالرقص والغناء.

لم يسبق أن رأيتُ «داودو» فخورًا بنفسه هكذا، كنتُ ألاحظه بدقة كلما اقتربتُ منه، فبدا لي وكأنني أرى حدثًا نادرًا، كان رجلًا كبيرًا تبدو عليه السعادة دون خجل، ولأول مرة أشاهده يتقدم بصدره للأمام متجولًا من جانب إلى آخر وهو يمسك بالعصا الضخمة بين يدَيه.

كان يبقى كثيرًا في الدور العلوي مكتفيًا بالنظر من النافذة، ولم يكن يهبط إلا قليلًا لإصدار الأوامر والتعليمات، وللإشارة إلى بعض الأشياء الخاصة.

كان من الواضح تمامًا أن «داودو» صديقٌ كبيرٌ لاتحاد النساء.

اتسمَت اجتماعات النساء بالجدية والسرعة، وكان إسحاق يُعيد صياغة ما يكتبنه بخطه الجميل، ويدفع بالورقة ناحية المسيحية المتوحشة قائلًا: لماذا لا تناقشين هذا غدًا مع النساء؟

أصبحتُ أقوم بدوري كرسول متنقلًا بسرعة ونشاط بين «إيجبين» و«آكية» والدكان وماما «أدوني» وماما «إيجبور» و«كيمبيري»، واستعادت المجموعة دروس القراءة والكتابة، وبدأتُ أسأل نفسي: ألا تُوجَد بين تلميذاتي زوجةٌ أجمل من السيدة «أدوفوا»؟ كانت أصغر النساء وأجملهن وأكثرهن حياة وفتنة، ثم عرفتُ أنها لم تكن متزوجة، فقررتُ الزواج منها، خاصة وأن بعض النساء كن يتهامسن عن ضرورة زواج مدرسهم الصغير — بعد أن أصبح طبيبًا.

خصَّصَت النساء في اجتماعاتهن ساعةً للقراءة والكتابة وعلم الحساب، وساعةً أخرى لتبادل الأسئلة عن الصحة، وبعضَ الوقت لمناقشة مشاكل الضرائب، كن قد رفضن الطلبات الكثيرة التي تقدَّمن بها للإعفاء من الضرائب، فاختارت المجموعة وفودًا جديدة، وكتبَت النساء مزيدًا من الطلبات حتى امتلأ مكتب ضابط المقاطعة بالطلبات والعرائض والتهديدات.

سافرَت السيدة «كوتي» مراتٍ عديدةً إلى لاجوس للحصول على مزيد من التأييد، حتى سمعنا بعد فترةٍ طويلةٍ عن تكوين «اتحاد النساء النيجيري».

أصبح الاتحاد معروفًا على أوسع نطاق، وكان الكل يشارك في وضع نهاية لحكم الرجل الأبيض في البلاد، فكان السجن عقابًا لكل من يطالب بمغادرة الرجل الأبيض، اعتقَلوا بعضًا من الشباب القوميين وكثيرًا من الأسماء الجديدة التي انضمَّت للحركة.

كان البعض يُعِد نفسه لزيارة إنجلترا كما فعل «داودو» و«بيير»، وكانوا أيضًا يطالبون بضرورة الانتهاء من حكم الرجل الأبيض، فراح الناس يتجوَّلون في كل البلاد يجمعون النقود، ولم يبخل اتحاد النساء بمساندة تلك المجهودات بكل قوَّته وإمكانياته، عقد كثيرًا من المؤتمرات والمشاورات، وكان من اليسير أن نساهم نحن الصغار بمصروف جيوبنا الصغير إدراكًا منا لأهمية الهدف الكبير.

كن يناقشن مشكلة الضرائب حين نهضَت سيدةٌ عجوز بمساعدة أخريات، تقدَّمَت بجسدها الضعيف نحو المجلس، وقالت: سمعتُ أن بعضَ الناس هنا يفعلون شيئًا لإنقاذنا من المعاناة التي تُثقِل كاهلنا، والتي يفرضُها رجال الضرائب.

كانت أصابعُها تتردَّد فوق عقدة اللفافة، وحين نجحَت في فكِّها أخرجَت قطعةً من الورق واستطردَت: ها هي، إنها سببُ كل المشكلة، سأحكي لكم، كان لي ولدٌ وحيدٌ مات منذ ثلاثة أعوام وله ثلاثة عشر طفلًا، هل تسمعون؟ ثلاثة عشر طفلًا من زوجاتٍ مختلفات، أحضَروهم عندي وكلهم صغار فقلتُ لنفسي: ماذا أفعل بأولئك الأطفال وأنا وحيدةٌ بدون زوج؟ كان لا بد بالتفكير في كيفية الحياة، فتذكَّرتُ مزرعة ابني التي كان يعيش منها، وقالوا لي: «إيا»، يجب أن تفعلي شيئًا، اذهبي لتعتني بالمزرعة، بمساعدة إحدى زوجات ابنك، وعندئذٍ تستطيعين الإنفاق على الأطفال وتعليمهم.

قلتُ: ذلك شيءٌ جيد؛ فالعمل أفضل من التوسُّل.

ثم سارعتُ إلى المزرعة من أجل العيش، حتى لو تعثَّر تعليم الأطفال، كان العمل شاقًّا جدًّا بالنسبة لي كامرأة عجوز، لكن رجال الضرائب حضروا منذ أسبوعَين، وأعطَوني هذه الورقة قائلين: أنت تملكين مزرعةً كبيرة.

لكنهم لم يقولوا شيئًا عن الأطفال الثلاثة عشر، والنساء الأربعة اللاتي يعتمدن على المزرعة، ويتطلعن إلى إنتاجها.

ها هي الورقة أمامكن، من أين لي الحصول على تلك النقود المكتوبة في هذه الورقة، أخبروني أين توجد النقود لأذهب وأبحث عنها؟ إنني لم أرَ قَط في حياتي مثل هذه النقود الكبيرة.

كن ينصتن في هدوء، ثم راحت الورقة تتحرك من يدٍ إلى أخرى، حتى استقرت أمام السيدة «كوتي» فوق المنصة.

اندفعَت «كيمبيري» فجأة من خلف المنصة، دفعَت الكرسي بجسدها وقالت: كفى، لقد سمعنا بما فيه الكفاية O ya, e nso L'AKE![1]

نهضن محلقاتٍ بأياديهن فوق رءوسهن، وقد فكَّت كل واحدة منهن رباط رأسها، وربطَتْه حول خصرها.

كانت «كيمبيري» تقود الطريق وهن خارجاتٌ من الإرسالية، فامتلأَت الشوارع المؤدية إلى القصر في «آكية».

[1] حان الوقت، دعونا نسير نحو آكية.

كان الممر الواسع المربع يتصدر قصر «آلاك»، ويفصل بين أسوار القصر والشوارع العامة، وكان دكان المسيحية المتوحشة يقع في نهاية ذلك الممر في الجانب الآخر من الشارع، كان الممر نظيفًا ومحاطًا بالأحجار البيضاء والأشجار، وكانت البوابة المقوسة تؤدي إلى مبنى القصر ويجلس فوقها تمثال لأحد الأفيال كان رمزا لملكية «إيجبالاند»، وعند أطراف الممر على اليمين كنا نلمح أشكالًا من الخشب والطين الخزفي.

كنا من خلال الدكان نشاهد الأجبوني وهم يسارعون طوال ساعات النهار للالتحاق باجتماع الرؤساء، كانوا يسيرون بخطًى سريعة وبقوة تشير إلى صحتهم العفية، وهم يرتدون الثياب الواسعة التي تتدلى من أحد كتفيها الأشرطة، كان البعض منهم يرتدي شباشب من الجلد أو القماش وقبعةً من القماش يتدلى منها فوق إحدى الأذنَين جرابٌ أو كيس، ويمسكون في يدهم اليُمنَى بمجموعة من حديد أو نحاس المكتب، كان الخدم يتولون حملها نيابةً عنهم، وكانت أيضًا تلك المراوح الكبيرة من الجلد المقوَّى، لكن أكثر ما كان يميِّزهم هي تلك القبَّعات ذات الحواف العريضة المصنوعة من الجلد والمزيَّنة بالألوان والقشور والخرز.

كانوا يمشون في «آكية» هادئين كأرواح الموتى تبدو على وجوههم سيماء الحكمة، وكنا نخاف منهم، وننظر إليهم بمزيج من الرعب والافتتان.

كانت المباني تحتوي بداخلها على المكاتب وحجرات مجلس الإدارة البلدي، وبداخل المبنى الكبير كان ثمَّة سردابٌ طويل يؤدي إلى الفِناء؛ حيث الانفصال الكامل عن العالم الخارجي، كان السور المنخفض على شكل نصف دائرة يحيط بالفِناء، وكان مزخرفًا بالتماثيل على شكل الإنسان والحيوان.

عند ظهور «آلاك» في الشرفة كان الرجال ينبطحون على الأرض بينما تركع النساء على أرجلهن ويزحفن على الأرض، ثم ينادي رؤساؤه على مقدِّمي الطلبات وأصحاب الشكوى، وينتهي الأمر بإصدار الأحكام، وتقديم النصائح وبعض الوصايا.

عرفتُ الوقت الذي يظهر فيه «آلاك»، فكنتُ أخاطر بالذهاب لمشاهدة مختلف الناس المتوسلين، وحدث أن رآني ذات مرة فأشار لي وتملَّكَني الرعب، قفزتُ من مكاني واتجهتُ ناحيته بهدوء، لكنه كان ظريفًا معي، وكان الخدم يضحكون في السر، غير أنني لم أملك الشجاعة الكافية لإغراقه بأسئلتي.

اكتشفتُ ذات مرة أحد الممرات، المؤدي إلى دهليزٍ منحنٍ يؤدي بدوره إلى حجرات الحبس؛ حيث يقف رجال البوليس الذين يتظاهرون بأنهم حراسُ القصر، كانوا يفتحون باب ذلك الممر فتخرج مجموعة من المذنبين والمذنبات، يُلقون بهم في تُراب الفِناء أسفل

«آلاك» الذي يطل من الشرفة، ويسألهم بصوتٍ رفيعٍ حزين: لماذا أيها الناس لا تدفعون الضريبة حتى لا تجبرونا على فعل ذلك؟

تزاحم الناس عند بوابات القصر، وكم أدهشَتْني ماما «إيجبور» بوصولها السريع مع الأخريات، انحنَت المسيحية المتوحشة احترامًا عند ظهور «آلاك» وكذلك فعلَت ماما «أدوني» والأخريات، ومنهن «كيمبيري»، وكان واضحًا أن «آلاك» يستقبل الوفود بلطف ومجاملة، فراح يتحدث إليهن بطريقةٍ مهذَّبة توحي بالأبوة، وبدا وكأنه مقتنعٌ بكل ما تحدثن بشأنه، كان يتحدث إليهن وكأنهن بناته أو صديقاته أو قريباته.

ركعَت «كيمبيري» مرةً ثانية، وقدَّمَت له التحية قائلة: «كابينزي»، أوه «كابينزي»، إنني أتوجه إليك اليوم باسم كل النساء اللاتي تركن منازلهن وأطفالهن والمزارع والشئون الصغيرة لزيارتكم اليوم، إنهن متجمعاتٌ في الحديقة الأمامية، ويمكنك أن تشاهدهن بنفسك «كابينزي»، إنهن نساء «إيجبا» ولقد جئن للقول: كفى، كفي.

إن السيدة «كوتي» هي التي سألَتني أن أخبرك بشأن النساء المجتمعات بالخارج، إنهن جائعات وأطفالهن جوعى، وليس لديهن أيُّ أمل في التعليم أو الحلم بمستقبلٍ أفضل.

كانت الأسواق قديمًا تنعم بالهدوء والاحترام والأمان، وكنا طوال فترة بقائنا في السوق نُحس وكأننا في بيوتنا، أما الآن فإن رجال الضرائب ورجال القصر يضايقوننا ويضعون أياديهم على الملح والخضروات والمحصول والزيت وكأن ذلك من حقهم، يقولون بأنهم مُجبَرون على فعل ذلك من قِبل الرؤساء والمجلس، ونحن نقول: كفي، كفي، لا نريدهم في الأسواق بعد اليوم، يجب أن يرحلوا بعيدًا عنا، إنهم يرسلون البوليس للقبض على نسائنا وحبسهن وجلدهن بالسياط، لا نريدهم في الأسواق بعد اليوم.

أخبرَتْني السيدة «كوتي» أن أخبركم بأننا نكتب الطلبات، ونعقد الاجتماعات، ونتقدم بالاحتجاج في كل مكان ضد ذلك الظلم في فرض الضرائب.

ارتفع صوت «كيمبيري» وهي تواصل حديثها، حتى سمعَته النساء في الفِناء، فنهضن على الفور، وارتفعَت صيحاتهن حتى ملأَت سماء «آكية»: «لا مزيد من الضرائب، لا ضرائب بعد اليوم.»

كان «آلاك» جالسًا يتأمل المشكلة في ذهول، انتظر حتى يسود الهدوء، ثم قال: «إميليا»، أشكرك جدًّا، أشكركن جميعًا، وأتوجه بشكري للسيدة «كوتي» التي لا توجد هنا الآن.

قاطعَتْه «كيمبيري» قائلة: إنها قادمة في الطريق.

بدا عليه القلق، لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته، وقال: هل هي قادمة؟ آه، حسنًا، إن رائدةً جديدةً ستنضم إلى الجمع، ولكن دعوني أسألكن أيتها النساء: هل تعتقدن بأننا نستطيع؟ إن الضرائب قديمة قِدَم المجتمع الإنساني، ولا يستطيع أحدٌ أن يلغيها هكذا ببساطة.

أجابت المسيحية المتوحشة: «كابينزي»، أتوسل إليك أن تتأمل الأمر. فكِّر في الأمر بعناية فليس الوقت مناسبًا لمعرفة أن أجدادنا كانوا يدفعون الضرائب، إننا نتحدث اليوم عن نسائنا اللاتي لا يستطعن دفع الضرائب.

قال «آلاك»: قد يكون ذلك حقيقيًّا، وأنا أعلم مدى الورطة التي تعاني منها النساء لكن سؤالي ما زال مطروحًا: هل يمكن ذلك؟ وعلى أية حال فإنني لا أستطيع اتخاذ قرار في هذا الشأن؛ فلستُ أنا الذي أفرضُ الضرائب وإنما مجلس الحكومة، فيجب أن يتحول إليهم الأمر، لكنني أسألكن مرةً أخرى: هل تعتقدن أن ذلك ممكن؟

نهضَت «كيمبيري» من مكانها مذعورة، وهزت رأسها بقوة قائلة: لا، لا، أوه «كابينزي»، لقد جئنا إليك كأبٍ لنا، جئنا إلى الشخص الذي نعرفه؛ فنحن لا نعرف مجالس أو حكومات غيرك أنت، أنت الحكومة والحكومة هي أنت، ولقد جئنا لنتحدث إليك، ولا نريد الحديث مع أحد غيرك، وكما قالت زوجة الناظر يجب أن تفكِّر في الأمر وتتأمله بعنايةٍ شديدة.

قال «آلاك» مؤكدًا: سوف أفعل، سوف أفعل لكنني مضطرٌّ لاستدعاء المجلس، وقد أصدرتُ أمرًا باستدعاء أعضائه منذ قليل؛ فالأمر لا يتعلق بالقصر وحده، ولا يمكن الانتهاء منه في ليلةٍ واحدة، أعطونا بعض الوقت، وأخبروا الناس بأنني وعدتُ بالنظر في الموضوع، سوف نضع في اعتبارنا كل شيء في اجتماع المجلس.

تنهَّد قليلًا، ثم اتجه ناحية المسيحية المتوحشة بلهفة وضيق قائلًا: دعيني أسألك شيئًا، أنت زوجة ناظر المدرسة، وإنه المسئول عن المدرسة وأنشطتها المختلفة، وهو الذي يقرِّر سياسة المدرسة، ويتولى شئونها، والآن تخيلي معي بأنه يجب أن يتخذ قرارًا هامًّا خاصًّا باتجاه المدرسة، مثل زيادة أو نقص مصاريف المدرسة، أو تغيير مناهج التعليم، فهل يستطيع الناظر أن يفعل هذه الأشياء بمفرده؟

أجابت ماما: لا، «كابينزي»، لا بد أن يعقد اجتماعًا يضم المسئولين في المدرسة، أومأ «آلاك» برأسه قائلًا: نحن إذن متفقون، والآن لنفترض أن أولئك المسئولين رفضوا اقتراحات الناظر التي يؤمن بها، ويرى أنها ضرورية، فماذا عليه إذن أن يفعل؟

كانت المسيحية المتوحشة تنظر إلى الأرض حين هزَّت رأسها بأسًى، وقالت: «كابينزي»، إن من تتحدث عنهم هم agba-igba[٢] وليسوا مثل الأطفال الذين جئنا من أجلهم الآن.

أومأَت كل النساء برءوسهن في حزن، وراح «آلاك» يتطلع في الجمع المُحتشِد في الفناء، ثم تنهَّد ومضى إلى الداخل.

ارتفعَت الصيحات في السماء مردِّدة: «بيـ... يـ... يـ... ير» معلنة عن قدومها، أحاطوها من كل الجهات، وأصبح الممر المؤدي إلى الفِناء مزدحمًا.

شعَروا أن شيئًا خطيرًا قد يحدث، فأرسلوا في طلب ضابط المقاطعة ورجال البوليس، حاول الضابط أن يشقَّ طريقه وسط الزحام، لكن النساء كن يضايقنه، حتى صار وجه الرجل الإنجليزي أكثر احمرارًا، وعرف أنهن يضحكن عليه، فأصدر الأمر لرجال البوليس أن يُفسِحوا الطريق بالقوة، وعندئذٍ وصل إلى حيث تُوجد السيدة «كوتي»، المحاطة بقلق النساء وأسئلتهن الكثيرة.

ثار غضبُ النساء عندما ضغط عليهن رجال البوليس لإفساح الطريق، فرحن يطلقن صيحات السخرية من الضابط، الذي أصبح وجهه ورقبته بلون الخشب الأحمر، وتجاوَزَ الإهانة حتى دخل فِناء القصر.

شعرتُ تمامًا أن إحساسه بالإهانة والتحقير جعله يحتمي بالقصر إلى الشرفة المُطِلَّة على الفِناء، ثم صاح في السيدة «كوتي»: انظري هنا أيتها السيدة، جئنا هنا لنعقد اجتماعًا هامًّا، فهل تتكرَّمين بإبعاد نسائك؟!

أجابت السيدة «كوتي»: ونحن أيضًا نعقد اجتماعًا هامًّا، أم إنكم تعتقدون أننا هنا لنلعب؟!

صاح الرجل بغضب: حسنًا، أخبريهن إذن بالتزام الصمت والهدوء.

صمتَت السيدة «كوتي» لحظة، ثم قالت: معذرة، عليك بمحادثتي أنا.

نعم، بالطبع أنا أتحدَّث إليك، قولي لهن أن يلتزمن الصمت.

ساد الهدوء بعد صياح الرجل، لكن السيدة «كوتي» أجابته بطريقةٍ غاضبة ظل صداها يتردد في «أبيوكوتا» لأسابيعَ طويلة.

---

[٢] أطفال أكبر سنًّا وحالتهم جيدة.

قال الضابط بعد غضب السيدة «كوتي»: هل تتحدثين إلى أمك بمثل هذه الطريقة؟

تقهقر الضابط فاتحًا فمه وسط تذمُّر وغضب النساء، وارتفعَت الهتافات في الأفق مطالبة «آلاك» بالتخلص من ذلك الرجل الأبيض الوقح، وتقطيع أعضائه التناسلية لإرسالها إلى أمه.

تراجعتُ إلى حافة الفِناء خوفًا من أن تدوسَني الأقدام الكثيرة، وحين مررتُ بجوار السيدة «كوتي» وسط الزحام رأيتُها لأول مرة تبتسم وتقول:

Hm, I'oogun, o ti ya de'bi.[٣]

جاء رجلٌ أبيضُ من مقاطعة «إيجبا»، كان يبدو متغطرسًا وهو يمشي في الممر، أثارت ثورةُ النساء غضبه، فراح يؤكد سلطته وهو يصفِّر مختالًا وقال بصوتٍ أجشَّ مثل شكله: هاآآم، لقد فسد العالم، إن العالم يوشك على نهايته عندما تحاول تلك الـ agb'eyin – to[٤] محاصرةَ القصر وإثارةَ القلق.

ثم ارتفع صوتُه أكثر وهو يقول: اذهبن إلى منازلكن للعناية بالمطبخ وإطعام الأطفال فماذا تعرفن عن شئون الدولة؟ ألا ترغبن في دفع الضرائب؟ أنتن بحاجة للضرب بقوة فوق أردافكن.

تظاهرَت النساء مرةً ثانية، وعلَت الصيحات والهتافات، فلم يعُد أحدٌ يشك في قوة النساء الروحية وقوة «بيير» العظيمة.

أُصيب الرجل في فخذه وهو يواصل تهديداته، ولحقَتْه ضربةٌ أخرى من أحد الاتجاهات فبدأ يترنح، وارتسمَت على وجهه علامات الحَيْرة، ثم سارع بالزحف وهو في حالةٍ متدهورة، ثم هجمَت النساء على واحدٍ من الستة الذين جاءوا معه، ومزَّقن شاله والمروحة والبرنيطة، وكرَّرن نفس الشيء مع الآخرين تاركين إياهم بملابسهم الداخلية فقط، فلاذوا إلى القصر بينما هُرع البعض عائدين إلى منازلهم.

أسرعتُ إلى الدكان للاحتماء بالمسيحية المتوحشة، التي كانت قلقة بشكلٍ ما من ذلك العنف، لم أصدِّق قَط أنها تكره العنف.

---

[٣] هاآآم، هل يُوجَد الرجل المكافح هنا؟

[٤] النساء اللاتي يتبوَّلن من المؤخرة.

كانت ترتِّب البضائع أمام الدكان حين شاهدَت واحدًا من الأجبوني يمشي بثقة نحو «آفين» ولا يعرف شيئًا عما يحدث، فصاحت قائلة: بابا، بابا، إلى أين أنت ذاهب؟

أجاب: إلى «آفين»؛ حيث تم استدعاؤنا من أجل بعض المشاكل هناك، ها أنا ذا أسمعها من هنا.

– بابا، ارجع بسرعة، إذا شاهدَتْك النساء ...

ثم اندفعَت إلى الخارج، وسحبَتْه إلي داخل الدكان، وأغلقَت عليه ضلفةً واحدة من الباب، وقالت: بسرعة بابا، انزع عنك هذه الأرواب، وتخلَّ عن ملابس الأجبوني.

شعر الرجل بالاضطراب من سرعتها وصوتها وحركتها فقال لها:

Enh? Ewo tl tun de yi? enh?[٥]

توجهَت ماما خلف الباب، وتناولَت شاله وقبعته وألقت بهما خلف الشباك، وقالت: بابا، تخلَّص أيضًا من العباية واقذف بها إلى الخلف مع بقية الأشياء، واحتفظ فقط ببنطلونك.

بعد لحظاتٍ قليلة كانت النساء قد اقتربن من الدكان، وشاهدن الرجل الأجبوني، لم تحاول المسيحية المتوحشة أن تنكر وجود الرجل، وقالت: إذا كان هو هذا العجوز الذي تبحثن عنه فإنه بالداخل، لكنه ليس أجبونيًّا.

قلن باستنكار: آه، ماما «وول»، كيف تقولين ذلك وقد شاهدناه بعيوننا؟

– لقد كان كذلك، أما الآن فلقد تغيَّر، لقد قلتُ له أن تخلَّ عن ملابس الأجبوني لعدم القدرة على احتمالهم اليوم.

قالت إحداهن مقاطعة: إنهم ما زالوا أعداء سواء بملابسهم السخيفة أو بدونها، أليسوا هم الذين يفرضون علينا الضرائب؟ دعينا ماما ننال من هذا الرجل قبل أن يذهب.

هتفَت الأخريات بصيحات التأييد، فأضافت أخرى: اليومَ يومُ حسابهم جميعًا، فدعيه يخرج يا ماما.

قالت المسيحية المتوحشة: أنا لا أعرفه، وتستطيع واحدةٌ منكن أن تدخل وتسأله، إنني أعرف اثنَين أو ثلاثةً منهم فقط، فأرجو ألا تفهمن أنني أقوم بحمايته لأنه ibatan[٦] ولكنني لا أحب المتاعب، ولا أحب كل ذلك العنف؛ لأننا لم نُعِد أنفسنا له.

---

[٥] ما هذه التطورات الجديدة؟

[٦] أحد الأقرباء.

هدأَت ثورتهن قليلًا، لكن إحداهن قالت: دعيه يخلع كل ملابسه، ويتخلى عن كل أشيائه؛ فلا نريد رؤية أيٍّ منها في شوارع «أبيوكوتا» اليوم أو غدًا، وأيضًا للأبد.

هزَّت ماما رأسها قائلة: بابا، اطوِ ثيابك بعناية، واربطها جيدًا، ثم اذهب إلى منزلك.

تنهَّد الرجل قائلًا: آه، لستُ في عجَلة من أمري، سأبقى هنا حتى يهدأ كل شيء.

قالت المسيحية المتوحشة للنساء: ماذا تُردن أكثر من ذلك؟ إنه خائفٌ منكن، فاذهبن أولًا ليغادر هو بعد ذلك، قالت النساء: دعينا نتأكد أنه ليس واحدًا من أولئك الذين يجب أن نحذر منهم.

اضطُر الرجل العجوز أن يقدِّم نفسه، ثم أقسَم أنه طوالَ حياته لم يكن ضد النساء، وأنه كان يطالب بإلغاء الضرائب، وكثيرًا ما أخبَر «كابينزي» عن أولئك الطفيليين، كما أن زوجته شاهدةٌ على ما يقول؛ لأنها أيضًا كانت تتاجر في السوق.

انصرفَت النساء، فانحنى الرجل العجوز عدة مراتٍ مُعبِّرًا عن شكره وامتنانه للمسيحية المتوحشة، ثم أسرع ببنطلونه مخلفًا وراءه ملابس الأجبوني قائلًا لنفسه: يمكنني إحضارها غدًا.

قبل الغسق بقليلٍ ساد الهدوء، لكن النساء كن قد قرَّرن محاصرة القصر حتى يحصلن على كل المطالب، فبدأَت الفرقة الموسيقية تتحرك في كل الطرق والممرات المؤدية إلى القصر، تدفقَت النساء من كل صوب قبل ساعة من غروب الشمس، ووسط كل ذلك الزحام كانت امرأة تعاني آلام المخاض فشاهدتُ، لأول مرة ميلاد طفل، أسرعَت السيدة «كوتي» نحو المرأة، ورأتني واقفًا في هدوء وسط حلقة من النساء، شاهدتُ إحداهن تدفن الخلاص تحت شجرة في الحقل، وراحت تنظِّف المولود، وتربط الحبل السُّري.

اشتد الزحام بعد وصول كثيرٍ من القوافل الأخرى، فهزَّت ماما «إيجبور» رأسها، وقالت: كأن السموات فتحَت أبوابها، وتفجَّرت القبور عن الموتى، فجاءوا جميعًا لمشاركتنا.

ارتفع صوتٌ بالغناء، وكان الجميع في حالة من الذهول والنشوة والابتهاج، كان الجميع يغني في الليل:

La – illah – il – allah
Anobi gb’ owo owa
On’ise nla gb’ owo owa
Anobi gb’ owo wa

Ate’ le ni ma ya gb’ owo owa
Anobi gb’ owa o wa[٧]

[٧] لا إلَه إلا الله
ساعدنا أيها الرب
رب الأعمال الكبيرة، ساعدنا
أنت الذي تقف بجانبنا، ساعدنا
أيها الرب، ساعدنا.

١٥

صدر الأمر بإغلاق الأسواق ودكاكين النساء ومصادرة بضائع من لا يلتزم بالأمر، وإرسالها إلى فِناء القصر، حاصَروا النساء اللاتي رحن يتجولن في أرجاء المدينة، وانضم الرجال إليهن نحو مزيد من التشجيع والتغلب على الخوف الذي أصاب بعضهن.

غضب بعض الرجال من زوجاتهم الخائفات، ودفعوا بهن للمشاركة؛ لأن ما يحدث من أجلهن.

ذات صباحٍ أمر أحدُهم زوجته بالذهاب إلى القصر، بعد أن قدَّم لها نقودًا لإنفاقها في طعام الأخريات، مؤكدًا لها أنه سوف يعتني بالأطفال حتى ينتهي كل شيء.

تصاعدَت الحركة في اتجاه «آفين»، فترك بعض الرجال الآخرين مزارعهم للانضمام إلى الحركة، بينما توجَّه بعضهم إلى المزرعة لإحضار البطاطا والفاكهة والنبيذ لتقديمها للنساء.

كانت «بيير» والمجموعة يتناقشن مع الضابط الجديد، بعد أن قدَّم الضابط الأسبق استقالته، وكانت الاجتماعات مع مجلس القصر لا تتوقف ولكن دون الوصول إلى حلٍّ من الحلول، وعند نهاية كل اجتماع كن يُخبرن بقية النساء والرجال بعدم التوصل إلى حل، فيجيبون بالغناء والرقص نحو مزيدٍ من التحدي.

في الصباح التالي، بعد أحداث الشغب الأولى، أرسلوا من لاجوس قوةً مسلحة من البوليس راحت تراقب الموقف من بعيد وهم يمارسون التدريبات بثقة، بينما كانت بعض النساء يسخَرن منهم بتقليد حركاتهم في التدريب، وكان قائدهم متصببًا بالعرق في شمس الصباح، ويُجاهد لاستعادة كرامته أمام النساء اللاتي يسخرن منه.

كان «آلاك» مذعورًا ووحيدًا مع حوضه المائي وأسماكه الكهربائية لا يستطيع إيقاف الهتافات والأغاني التي تندِّد به، وتحطُّ من قدره، ولم أستطع أن أفهم رفضه التسليم

بمطالب النساء، فقلتُ لنفسي: ربما كان عبدًا لضابط المقاطعة الحالي، أو لذلك الحقير الذي كان قبله!

كانت السيدة «كوتي» ورفيقاتُها قد عرفن تمامًا بأنه لا شيء يمكن الحصول عليه من خلال الاجتماعات والمناقشات مع القصر، فاندلعَت حرب الإرادة والتصميم، ورحن يتصرفن بطريقةٍ أخرى قد تثمر بعض النتائج، ولسوء حظِّي لم أستطع أن أتبيَّن تمامًا تلك الطريقة الأخرى.

بعث كبار الأجبوني برسالة إلى السيدة «كوتي» تقول نحن أبناء Majeobaje[1] لا نستطيع أن نرى الأشياء وهي تتطور إلى الأسوأ دون أن نفعل شيئًا، سوف تُصيبكِ الدهشة عندما تعرفين أننا نقف إلى جواركن، لقد أعدَدْنا قائمةً بطلبات النساء.

أثناء الغداء في اليوم التالي أخبرَت المسيحية المتوحشة إسحاق بما قالوه، وكان الغداء الأول الذي يجمعنا منذ أيامٍ عديدة وربما أسابيع عديدة.

قالت ماما: كانوا غاية في اللطف، ولم يطلبوا منا أن نعتذر عن معاملتنا القاسية لهم، لكنهم قاموا بتحذيرنا مما قد نصل إليه، وقالوا لنا بأنهم لم يندهشوا.

وأضافت ماما: قالوا أشياء كثيرة وغريبة، وكان أهم ما قالوه أنهم لن يتركوا الخراب يسود «إيجبالاند»، ولن يسمحوا لنا بإتلاف أي شيء.

واصلت المسيحية المتوحشة حديثها مع إسحاق تلك الليلة مدةً طويلة، كانا يتحدثان بصوتٍ منخفض، ولم أكن أعرف أن أمي تعاني المرض، وأن رأسها يعاني اضطرابًا شديدًا.

اقتربتُ قليلًا لأستمع، فعرفتُ أن الأجبوني قوم لا يبالون، وأنهم كثيرو النسيان، وإذا كانوا حقيقة قد تنبَّئوا بكل شيء، وعرفوا كل شيء كما قالوا، فلماذا لم يسارعوا بالحل ويساندوا النساء؟

لم أستطع أن أصدق ادعاءات الأجبوني بأنهم يعلمون الغيب.

كانت الاضطرابات ما تزال مستمرة حين استدعَوني للمقابلة مرةً أخرى لامتحانات كلية الحكومة، فراح إسحاق يتابعني بلا شفقة، قلتُ له كي يطمئن: لا تقلق، سوف أحصل على المنحة الدراسية هذه المرة، إنني متأكد من حصولي عليها.

[1] جماعة تؤمن بالسلام ولا تترك الأشياء تصل إلى حد الحرب.

وبخني لتلك الثقة المبالغ فيها، ولم أعرف كيف أفسر له أن ما أريده يصبح مؤكدًا بطريقةٍ ما، كان حريصًا على أن أظل بالمقعد الأمامي في المنزل بعد عودته من المدرسة، فكنتُ أجلس وأذاكر دون أي إحساس بأنني افتقدتُ شيئًا ذا أهمية.

كان إسحاق ينظر إليَّ بعد عودته بومضة من السخرية والأمل، ثم يسأل: كيف تُواصِل النساء حربهن بدونك؟

وكنتُ أجيبه بلا تفكير: أوه، لا شيء يحدث حتى الآن، ولا شيء سيحدث ليومَين آخرَين.

لم أعرف قَط لماذا أجبتُ هكذا، لكنني غالبًا ما كنتُ أقول الصواب، كنتُ أملك إحساسًا يصيب إسحاق بالحيرة.

بعد اجتماع نهاية الأسبوع في المدرسة صَعِدتُ إلى الطابق العلوي كي أودِّع «داودو» و«بيير» قبل أن أغادر إلى «أبادان» في اليوم التالي، كانوا في اجتماعاتهم السابقة يغنُّون نشيدَين؛ أحدهما نشيد «إيجبا» الوطني، والآخر «حفظك الله أيها الملك»، كان الملك هو «آلاك» وليس ذلك القابع في الجانب الآخر من المحيط، فتم إلغاء النشيد الثاني منذ أسابيعَ عديدة، ثم سمعتُ أنه يتردد مرةً ثانية عن طريق مجموعاتٍ مستقلة غير رسمية، فاعتقدتُ أنه نوع من تحدي «داودو»، لكنني حين سمعتُ الكلمات عرفتُ أنها تغيَّرت، كانوا يردِّدون:

Kabiyesi, oba on’ike
Ademola K’eran
Omo eran j’ogun ila
Ono ote Lo l’obe
Kabiyesi, baba iran
Kabiyesi o
Kabiyesi oba ´win
Kqbiyesi o[٢]

[٢] الملك الأحدب،
أديمولا تتحمل المتاعب،
ابن الحيوان الذي يرث أوكرو،

قلتُ لنفسي: أوه، «آلاك»، يا لك من مسكين! إن هزيمتك مؤكدة.

عندما صعدتُ السلالم كانت «بيير» تتحدث في التليفون الذي كان أحد أربعة تليفونات في «أبيوكوتا» كلها، كانت تتحدث بغضب، ولم أشاهدها من قبلُ بمثل هذه الثورة والغضب.

كانت تقول: كنتم مجبَرين على إسقاطها فوق اليابان، أليس كذلك؟

لماذا لم تُسقِطوها فوق ألمانيا؟ أخبِرني على سؤالي إذا كنتَ تستطيع، لماذا اليابان وليست ألمانيا؟

توقفَت قليلًا وهي تسمع إجابة الطرف الآخر على التليفون، ثم ضحكَت بأسًى، وقالت بصوتٍ تملؤه المرارة: أنت تعرف تمامًا لماذا؛ لأن الألمان جنسٌ أبيض؛ لأنهم أقاربكم، أما اليابانيون فهم قومٌ قذرون ذوو لونٍ أصفر، هذه هي الحقيقة ولا تنكرها، لقد قمتم بإسقاط تلك الأسلحة غير الإنسانية فوق قومٍ إنسانيين، وفوق أكثر المدن كثافة بالسكان.

كانت تسمع الرد حين ازداد غضبها وانفجرَت قائلة: نعم، أنتم تُجيدون تمامًا ما تفعلون، وتُدينون أنفسكم أمام العالم، كان بمقدوركم إسقاطها فوق أحد الجبال أو في البحر، إنني أعرفكم، أعرف العقلية البيضاء، نحن الأفارقة واليابانيون والصينيون في أذهانكم قومٌ لا قيمة لهم.

سمعتُ عندئذٍ ضحكات الطرف الآخر من السماعة الذي تحدث طويلًا بينما ظلِلتُ أراقب التغييرات المختلفة فوق وجه السيدة «كوتي»، التي استراحت قليلًا وابتسمَت، ثم توتَّرت فجأة وقطَّبَت عن وجهها وهي تقول: لا، لم أتصل بك من أجل ذلك وإنما لتبليغ رسالة إلى الذين يُسمُّون أنفسهم بالحلفاء، وأنت أحدُ ممثليهم الأقرباء، والآن دعني أخبرك أن ملككم، أعني الموجود هنا، لا، لا تقاطعني؛ فأنا أملك الحق في التعبير، إنه ملك لكم أنتم، وأنتم الذين أنقذتم رأسه، استمع لي، لقد أرسلت لك قائمة بمطالبنا، وكان يتراجع في كل كلمة وكل وعد، فقط أخبِره عما بدر مني إذا لم يكن قد تعلَّم الدرس من هتلر، أخبره بضرورة أن يتعلم الدرس من هتلر، وأنت كذلك، وأيضًا الحكومة الاستعمارية، توقفَت وظلَّت تستمع مدةً أطول، ثم هزَّت أكتافها وقالت: حسنًا، لقد حذَّرتُك، إلى القاء.

ابن المؤامرة الذي يستولي على إناء الشوربة،
والد الحيوانات والبهائم،
الملك الخشبي.

ثم وضعَت سماعة التليفون.

اتجهَت ناحيتي وحدَّقَت طويلًا وهي تقول «نعم، أعرف أنك ستغادرنا وتذهب إلى كلية الحكومة، انتظر هنا، عندي شيء لك.»

اختفت في حجرة النوم، وعادت بلفافة صغيرة مسطحة كان يبدو أن ما بداخلها قميص، لكنني لم أهتم برؤيته؛ لأنني كنت مضطرًّا للتصحيح حين قلت: لا، لن أغادر وإنما أنا ذاهب فقط للمقابلة؛ فالمدارس لا تبدأ العام الجديد قبل يناير.

فكَّرَت قليلًا وقالت: طبعًا، ذلك صحيح، ولا أعرف كيف أنني لم أنتبه لذلك، وإذن لا أستطيع أن أقدم لك هذه اللفافة الآن.

سألتُها: لنفترض أنهم لم يختاروني بعد كل شيء؟!

ابتسمَت وتظاهرَت بأنها تفكِّر: هاآم، سيكون ذلك صعبًا؛ فأنا أحتفظ بهذه اللفة إلى يوم رحيلك، دعنا نرى، نعم، فلنبدأ من البداية، كم من الوقت ستُمضي هناك من أجل هذه المقابلة؟

– ثلاثة أيام.

قدمت لي ستة بناساتٍ قائلة: إنها لك، اشترِ بها شيئًا، وافترِض أنت أنهم قبلوك.

أومأتُ برأسي، ثم استطردَت حديثها: رائع، إذا قبلوك ولم تحصل على المنحة فسوف أعطيك القميص، أما إذا حصلتَ على المنحة فتستطيع أن تخمِّن ما سوف أقدمه لك.

أجبتُ بسرعة: زوج من الأحذية.

صاحت قائلة: ماذا؟

ثم تذكَّرَت وضحكَت مستطردة: أوه، نعم، زوج من الأحذية.

سألتُها فجأةً عن سبب غضبها وتوتُّرها بشأن إسقاط القنبلة فوق اليابانيين، وأضفتُ قائلًا: أليسوا هم أصدقاء هتلر؟

قالت: إن الرجل الأبيض رجلٌ عنصري، وأنت تعرف تاريخك عن تجارة الرقيق، حسنًا، إن الرجل الأسود بالنسبة لهم إنسانٌ متوحش وعبءٌ ثقيل، وكذلك الآسيويون بمن فيهم الهنود واليابانيون والصينيون وغيرهم، لكنهم يعتبرونهم أفضل منا درجةً صغيرة، وهكذا كان إسقاط تلك الأسلحة المدمرة فوقهم لا يعني شيئًا بالنسبة للرجل الأبيض؛ لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض، كانوا يجرِّبون أسلحتهم فوق أولئك الملوَّنين وكأنهم أغنام.

عاد «داودو» أثناء حديثي مع زوجته، ووضع بعض الملفات فوق الرف، اقترب وصنع لنفسه كوبًا من الشاي، ثم قال: لن أرسل «كوي» وإخوته إلى مدرسة يديرها الرجل الأبيض،

وعليك أن تفهم هذا، ليس فقط بسبب بشرتهم البيضاء، ولكن أيضًا لأنهم مستعمرون، إنهم يعملون على تدمير شخصية أولادنا، تذكَّر ما قلتُه لك في العام الماضي عندما كنتَ ذاهبًا للمقابلة الأولى، هل تذكُر؟

– نعم يا عمي.

– حسنًا، هل كنتُ على صواب أم لا؟

– لكنني أخبرتُك يا عمي أن المدرسة في إجازة، وأننا لا نفعل شيئًا سوى الاستعداد للمقابلة.

توجَّه بحديثه إلى «بيير»: هل تعرفين ما اكتشفتُه؟ إن أولئك المدرِّسين لا يصنعون جيوبًا في بنطلوناتهم!

أصاب الذعر «بيير» فسألَتْني: هل هذا حقيقي؟

قلتُ: نعم.

ثم استطرد «داودو»: الآن، هل تعرف السبب؟ لماذا يكون في العالم شبابٌ يرتدون بنطلوناتٍ بدون جيوب؟

هزَّ رأسه بقلقٍ وأضاف: هل تعرف؟ إن الرجل الأبيض مخلوقٌ غريبٌ في بلده، إن التلاميذ في بلدهم يرتدُون الحُلَل ذات الجيوب، فلماذا يأتي أحدهم إلى هنا كمديرٍ ومسئولٍ عن المدرسة ويمنع الجيوب عن أولاد مدرسته السود؟ لماذا؟

فكَّرتُ قليلًا، ولاحظتُ شيئًا في «داودو»، و«بيير»، لم أكن مع كلامهما في حاجةٍ لأسئلتي الكثيرة؛ فقد كانا دائمًا على استعداد للتحدث معي أو مع أي طفل، كان «داودو» غالبًا ما يُطوِّقني بذراعه حتى وأنا جالسٌ أقرأ في هدوء، وكان يسألني عن متابعتي للأخبار الحديثة من لاجوس أو أي مكانٍ آخر، وفي حال عدم سماعي أيَّ شيء كان يُوبِّخني ويهزُّ رأسه قائلًا: يجب أن تهتمَّ بمتابعة الأخبار؛ فلا يكفي أن تضع أنفك في هذا الكتاب الميت.

كرَّر القول: لماذا؟ لماذا يمنع المديرُ الأبيض الجيوبَ عن بنطلونات أولاد مدرسة الحكومة؟

قالت «بيير»: ذلك ما كنتُ أقوله للضابط قبل أن تأتي، إسقاط القنبلة الذرية فوق هيروشيما وليس ألمانيا البيضاء، إن كل رجلٍ أبيض هو عنصريٌّ كبير.

تنهَّد «كوتي» بوقار، وكان الحزن مرتسمًا فوق وجهه، فبدأتُ أتساءل عن الخطأ في ذهابي إلى مدرسة الحكومة.

سألني «داودو»: ماذا عنك الآن؟ ما عمرك؟ كم عمرك الآن؟

أجبتُ: أحدَ عشرَ عامًا.

– حسنًا، سوف تبلغ الحاديةَ عشرةَ والنصفَ عندما تذهبُ إليهم في يناير المقبل، ولقد أمضيتَ عامَين في مدرستنا، ذلك ما ينبغي التفكير بشأنه على ما أعتقد، ألا تعتقد أنت كذلك؟

اتجه ببصره إلى «بيير» طالبًا الرأي فقالت مؤكِّدة: أوه، نعم، نعم، ولا ننسى أنه ابن «آيو» و«إينيولا»، فأعتقد أنه سيكون قادرًا على مواجهتهم هناك.

أشار «داودو» برأسه بابتهاج، وقال متحديًا: نعم، سوف نرى، إنهم لا يضربون بالعصا إلا قليلًا جدًّا، كيف نعلِّم أولادنا بهذه الطريقة؟ إنهم أيضًا لا يسمحون بارتداء الأحذية.

أصبحتُ خائفًا فقلتُ: عمي، هل أنت متأكد؟

قال: بالتأكيد.

ثم ضغط على شفتَيه مستطردًا: لا أحذية، إنهم يتبنَّون أفكارًا غريبة في بناء الشخصية، لا أحذية إلا للرؤساء، لماذا تكون سياسة المدرسة هكذا؟

لم أعُد أهتم، وكانت نظراتي تخترق عينَي «بيير» التي كانت تلوِّح بحاجبَيها في استهزاء، فضحكتُ كثيرًا، ولحقَتْني «بيير» بضحكاتها.

ظل «داودو» يحدِّق في كلَينا متجهمًا لمعرفة السبب في ضحكاتنا.

قالت «بيير» بصوتٍ منخفض متعجبة: لا أحذية!

ثم قلتُ متنهدًا: لا أحذية!

وفكَّرتُ في عمري، أحدَ عشرَ عامًا، أحدَ عشرَ عامًا.

كان الوقتُ مناسبًا لبدء مرحلةٍ عقليةٍ جديدةٍ بالدخول إلى عالَمٍ آخر غير معقول، عالَم من المراهقين البالغين سنَّ الرشد.

(تمَّت)

هنـــداوي